

Columbia University
in the City of New York

THE LIBRARIES



GENERAL
LIBRARY



رسالة الهناء

للشاعر الفيلسوف أبي العلاء المعري

١ - نصوص ودراسات ٢ - النص الكامل

شرح وتحقيق
كامل كيسان

الطبعة الأولى

١٣٦٣ هـ - ١٩٤٤ م

كل الحقوق محفوظة

عنيت بنشرها دار الكتب الأهلية

ميدان برهيم باشا بجوار سينما ارباب - بالقاهرة

~~893.7 AB92~~
~~T5~~
~~v.1~~

1342

PJ

7750

. A25

R.6

1944

~~823.7A692 v.1~~

~~T5~~

~~v.1~~



أبو العلاء المَعْرِيّ كما يتخيله كامل كيلاني

الجزء الأول
نصوص ودراسات

الفكر والعقل

«الفكرُ حَبْلٌ - متى يُمَسَّكُ عَلَى طَرَفٍ

مِنْهُ - يُنْطِقُ بِالتُّرْبَا ذَلِكَ الطَّرَفُ

وَالْعَقْلُ كَالْبَحْرِ ، مَا غِيضَتْ غَوَارِبُهُ

شَيْئًا ، وَمِنْهُ بَنُوا الْأَيَّامَ تَعْتَرِفُ

« أبو العلاء »

نصوص دراسات

تمهيد

القدرة الإلهية

١ - الوفاء والغدر

يَرَى أَسْنَاذُنَا الْجَلِيلُ « أَبُو الْعَلَاء » - فَيَا يَرَاهُ - أَنْ
قُدْرَةَ اللَّهِ ، سُبْحَانَهُ ، لَا يُعْجِزُهَا شَيْءٌ ، فَالْيَمِينُ مُسْتَعِيدٌ
- عَمَشِيَّتِهِ - بَعْدَ اصْفَرَارِهِ ، شَبَابُهُ وَخُضْرَتُهُ ، مُسْتَرِدٌّ
- بَعْدَ مَوَاتِهِ - حَيَاتُهُ وَنَضْرَتُهُ .

وَالنِّيرَانُ الْمُتَلَهَّبَةُ مُتَفَجِّرٌ لَهَايَهَا - بِأَمْرِهِ - مِيَاهَا
سَائِلَةٌ ، وَالطَّبِيعَةُ الْإِنْسَانِيَّةُ مُتَحَوِّلَةٌ - بِإِذْنِهِ - مِنَ الْغَدْرِ
إِلَى الْوَفَاءِ .

وَالْأَغْنَامُ مُتَغَيِّرَةٌ طَبَائِعُهَا - بِحُكْمِهِ - مُسْتَبَدِّلَةٌ
بِضَعْفِهَا قُوَّةً ، وَاسْتِخْدَافُهَا إِقْدَامًا وَعِزِّيمَةً ، مُتَخَيِّرَةٌ مِنْ
عَرِينِ السَّبَاعِ سَكَنًا تَأْوِي إِلَيْهِ وَتَقَرُّ فِيهِ .

وَهَكَذَا يَسْتَرْسِلُ « أَبُو الْعَمَاءِ » — فِي خِيَالِهِ الْبَارِعِ ،
وَأَسْلُو بِهِ السَّاحِرِ الْفَيَاضِ بِالدُّعَابَةِ الْقَاسِيَةِ وَالتَّهْكُمِ اللَّاذِعِ ،
وَالشُّخْطِ الْمَرِيرِ . فَيُنَبِّتُ لَنَا — بِمَا أَلْفَنَاهُ مِنْ طَرَائِقِ إِثْبَاتِهِ
الْمُبْدَعَةِ — أَنَّ الطَّبِيعَةَ الْإِنْسَانِيَّةَ لَا سَبِيلَ إِلَى اسْتِقَامَتِهَا
وَاسْتَوَائِهَا ، إِلَّا إِذَا تَغَيَّرَتْ طَبَائِعُ الْأَشْيَاءِ كُلِّهَا ، وَانْقَلَبَتْ
حَقَائِقُ الْكَوْنِ الثَّابِتَةِ ، فَدَبَّتِ الْحَيَاةُ فِي الْهَشِيمِ ، وَتَحَوَّلَتِ
النَّارُ مَاءً ، وَالْأَغْنَامُ الْمُسْتَضْعَفَةُ سَبَاعاً ضَارِيَةً .

وَإِلَى الْقَارِي النَّصَّ الْعَلَائِيَّ الَّذِي فَصَّلْنَاهُ :

« إِذَا أَذِنَ رَبُّنَا اخْضَرَ الدَّرِينَ ^(١) (الْيَبِيسَ) .
وَتَبَجَّسَتْ — بِالْمَاءِ الْإِرِينَ ^(٢) (النِّيرَانَ)

وَوَفَّى لِقَرِينِهِ ، الْقَرِينَ ، وَرَاحَتِ السَّاجِسِيَّةُ (وَهِيَ
ضَرْبٌ مِنَ الْغَنَمِ) وَمَأْوَاهَا الْعَرِينُ

وَذَلِكَ — مِنَ الْقُدْرَةِ — لَيْسَ بِبَدِيعِ ١ » .

(١) جمع إبرة ، وجمعها على وجهين — كما يقول المعري — وإن شئت أن
تجعله مثل الزبدین (يواو في الرفع وياء في النصب والحذف) وإن شئت أن
تجعل نونه مثل نون مسكين ، فتجری علیها الاعراب .

٢ — الصدق والكذب

وَفِي رِسَالَةِ الْهِنَاءِ هُـ هَذِهِ الَّتِي نَجَلُوهَا لِرَوَّادِ الْأَدَبِ
الْعَلَّائِيِّ فِي عَيْدِهِ الْأَلْفِيِّ^(١) يُقَرَّرُ لَنَا شَيْخُ الْمَعْرِفَةِ كَيْفَ يَتَحَوَّلُ
الطَّبَعُ الْإِنْسَانِيُّ مِنَ الْكُذْبِ إِلَى الصِّدْقِ ، وَيَسْلُكُ فِي
تَقْرِيرِهِ مِثْلَ ذَلِكَ النَّسَقِ الْفَرِيدِ الْمُبْتَدِعِ الَّذِي سَلَكَهُ فِي
فُصُولِهِ وَغَايَاتِهِ ، فَيَتِمَثَّلُ صَاحِبُهُ وَقَدْ انْشَقَّتْ لَهُ لُجَجُ الْبَحَارِ
بِإِذْنِ اللَّهِ ، كَمَا انْشَقَّتْ — مِنْ قَبْلُ — لِمُوسَى الْكَالِيمِ ،
ثُمَّ يَتِمَثَّلُ دَهْشَةُ الْأَسْمَاكِ — حِينَئِذٍ — بِمَا حَدَثَ ، وَيَتَخَيَّلُ
حَيْثَانَ الْبَحْرِ ، وَهِيَ تَتَحَدَّثُ مُتَعَجِّبَةً مُتَطَلِّعَةً إِلَى تَعْرِفِ
اسْمِ ذَلِكَ الشَّيْخِ الْعَظِيمِ الَّذِي تَمَّتْ عَلَى يَدَيْهِ الْمُعْجَزَةُ ،
مُضَاعَفَةً لِصَاحِبِهِ الثَّنَاءِ ، دَاعِيَةً لَهُ بِطُولِ الْبَقَاءِ ، وَمَوْصُولِ
السَّعَادَةِ وَالْهِنَاءِ ، مُبْتَهَلَةً إِلَى اللَّهِ أَنْ يُجْزِلَ لَهُ فِي عَطَائِهِ
وَمُكَافَاتِهِ ، فِي دُنْيَاهُ وَآخِرَتِهِ ، جَزَاءَ مَا أَسْلَفَ لِلنَّاسِ مِنْ
مَسْكُومَاتٍ ، وَأُيْمَدَى إِلَيْهِمْ مِنْ حَسَنَاتٍ .

(١) ولد أبو العلاء يوم الجمعة عند مغيب الشمس ، لثلاث بقين من شهر ربيع
الأول سنة ٥٣٦٣ هـ بمصر النعمان ، وتوفي ليلة الجمعة ثالث ربيع الأول سنة ٤٤٩ هـ .

فَإِذَا انْتَهَى شَيْخُ الْمَعْرَِّةِ مِنْ هَذَا التَّمْهِيدِ ، رَاحَ يَصِفُ
فِي بَرَاعَتِهِ النَّادِرَةَ ، وَأَلَمَعِيَّتِهِ السَّاحِرَةَ ، كَيْفَ تَأْذُنُ الْقُدْرَةُ
الْإِلَهِيَّةُ أَنْ تَحْمَدَ نِيرَانُ الْكَذِبِ ، وَمَتَى تُرِيحُ الْعَالَمَ مِنْ
لَهْمِيهِ الْمُسْتَعِيرِ ، الَّذِي لَا يُبْقِي وَلَا يَذَرُ .

وَلَكِنَّهُ يَبْنِي آمَالَهُ الْبَعِيدَةَ عَلَى مُقَدِّمَاتٍ تَسْبِقُهَا ،
وَهِيَ فِي قُدْرَةِ اللَّهِ هَيِّئَةٌ ، وَإِنْ كَانَتْ فِي طَاقَةِ الْبَشَرِ مُسْتَحِيلَةً
التَّحْقِيقِ .

فَهُوَ إِذَا شَاءَ — سُبْحَانَهُ — أَمَرَ الْأَجْبَجَ الْمِلَاحَ ،
فَأَصْبَحَتْ عَسَلًا مَائِغًا خُلُوَ الْمَذَاقَ ، وَانْقَلَبَتْ مُلُوحَتُهَا
الْمُفْرِطَةُ فِي الْمَرَارَةِ ، شُهْدًا مُفْرِطًا فِي اللَّذَازَةِ وَالْحَلَاوَةِ .

وَهُوَ إِذَا شَاءَ — سُبْحَانَهُ — جَعَلَ السَّفِينَةَ تَمْشِي عَلَى
الْيَابِسَةِ ، وَتُصْبِحُ قَبَسًا مَتَوَهِّجًا مِنَ السَّنَا وَالنُّورِ ، كَأَنَّ مَقْبَسَ
لِتَوِّهِ مِنْ شُعْلَةٍ مِنَ النَّارِ مُلْتَهَبَةً . وَلَيْسَ هَذَا بِالْمَطْلَبِ
الْبَعِيدِ الْمُنَالِ ، مَتَى أَذِنَ مَنْ أَبْدَعَ إِلَّا كَوَانَ عَلَى غَيْرِ مِثَالٍ .
وَهُوَ إِذَا شَاءَ — سُبْحَانَهُ — أَمَرَ الرِّيحَ أَنْ تَحْمِلَ

السَّفِينَةَ وَأَنْ تَطِيرَ بِهَا فِي أَجْوَازِ الْفَضَاءِ ، كَمَا حَمَلَتْ عَرْشَ
« بَلْقِيسَ » فِي غَايِرِ الزَّمَانِ ، فَإِنَّ الْقِيَاسَ يُجَوِّزُ وَقَوْعَهُ
وَيَرْضَاهُ ، وَالْقُدْرَةُ تُقَرُّ حَدُوثَهُ وَلَا تَأْبَاهُ .

وَلَوْ شَاءَ — سُبْحَانَهُ — لَجَعَلَ أَسْمَاكَ الْبَحْرِ وَحَيْثَانَهُ
آمِنَاتٍ مُمْنَعَاتٍ ، فِي رَغْدٍ مِنَ الْعَيْشِ هَانِكَاتٍ ، يَتَهَادَيْنِ فِي
ذُرَا الْجِبَالِ الشَّائِخَاتِ ، وَيَمْرَحْنَ فِي أَرْجَائِهَا الْفَسِيحَةِ مُنْطَلِقَاتٍ
وَيَجْرَيْنِ فِي جَنَابَاتِهَا مُسْرِعَاتٍ ، كَمَا تَجْرِي أَسْرَابُ النِّعَامِ
فِي وَاسِعِ الْفَلَوَاتِ ، زَرَافَاتٍ وَجَمَاعَاتٍ .

وَهُنَا يَتِمُّ لُ « أَبُو الْعَلَاءِ » صَاحِبُهُ — وَقَدْ تَمَّ لَهُ الْمُرَادُ ،
وَبَلَغَ مِنْ غَايَتِهِ مَا أَرَادَ — وَيَتِمُّ لُ الْقُدْرَةُ الْإِلَهِيَّةُ الَّتِي
لَا يُعْجِزُهَا شَيْءٌ مُتَمَتِّعٌ فِي الْعُقُولِ ، وَقَدْ أَذِنَتْ لِمِيَاهِ الْبَحْرِ
أَنْ تَعُودَ إِلَيْهِ ، وَأَعْلَنْتْ كَلِمَتَهَا بِأَنْ يَنْصَلِحَ مَا فَسَدَ مِنْ
الزَّمَانِ ، وَيَسْتَقِيمَ مَا اعْوَجَّ مِنْ طَبْعِ الْإِنْسَانِ ، وَتَنْطَفِئَ
نِيرَانُ الْإِفْكِ وَالْبُهْتَانِ .

وَمَتَى تَحَقَّقَتْ هَذِهِ الْخَوَارِقُ وَالْمُعْجَزَاتُ ، انْتَصَرَ
الصِّدْقُ عَلَى الْأَكْذَابِ وَالثُّرَّاتِ . فَلَمَّا رَتَقِبَ مَعَ شَيْخِنَا
الْمَعْرِيِّ هَذِهِ النَّتَائِجَ الْبَاهِرَاتِ ، فَلَمَسْنَا يَأْسِينَ مِنَ الْفَوْزِ
وَالظَّفَرِ ، وَالْعَاقِبَةُ لِمَنْ تَأْتَى وَصَبَرَ .

٣ — سخرية ابن الرومي

لَعَلَّ الْكَثِيرِينَ مِنْ قُرَّاءِ «ابن الرومي» يَذْكُرُونَ
— بِهَذِهِ الْمُنَاسَبَةِ — أَسْلُوبَهُ الْبَارِعَ فِي سَخَرِيَّتِهِ مِنْ
الْوَزِيرِ «أَبِي الصَّقَرِ» حِينَ وَلِيَ الدِّيَّوَانَ ، وَعَجِبَ خُصُومُهُ
مِنْ تِلْكَ الطَّغْرَةِ ، وَكَيْفَ تَظَاهَرَ «ابن الرومي» بِاسْتِنْكَارٍ
مَا تَخَيَّلَهُ مِنْ دَهْشَتِهِمْ فَقَرَّرَ لَهُمْ مُعَاشًا سَاخِطًا أَنَّ ظَفَرَهُ
بِذَلِكَ الْمَنْصِبِ لَيْسَ أَنْعَجَبَ مِنْ ظَفَرِهِ بِالِانْتِسَابِ إِلَى أُسْرَةٍ
«شَيْبَانٍ» الْعَرَبِيَّةِ الْكَرِيمَةِ مَعَ أَنَّهُ مِنَ الْأَعْجَامِ ، وَلَكِنَّ
الْحُظَّ السَّعِيدَ يَصْنَعُ الْأَعَاجِيبَ ، وَالْقُدْرَةُ الْإِلَهِيَّةُ تَفْعَلُ
مَا تَشَاءُ مِنَ الْغَرَائِبِ ، ثُمَّ خَتَمَ دُعَابَتَهُ الْقَاسِيَةَ بِقَوْلِهِ :

إِنَّ لِلْحَظِّ كِيمِيَاءَ ، إِذَا مَا مَسَّ كَلْبًا أَحَالَهُ إِنْسَانًا
يَفْعَلُ اللَّهُ مَا يَشَاءُ ، كَمَا شَاءَ ، مَتَى شَاءَ ، كَائِنًا مَا كَانَ

٤ — تصوير الأمانى

وَالْمَعْرَى فِي هَذِهِ الرُّسَالَةِ مِثْلُ مَالِهِ فِي غَيْرِهَا مِنْ مَشْهُورِهِ
وَمَنْظُومِهِ : فَنُورٌ مُعْجَبَةٌ فِي وَصْفِ مَا تُبَدِّعُهُ الْقُدْرَةُ مِنْ
تَصْوِيرِ الْأَمَانِيِّ وَالْأَحْلَامِ ، وَبَعَثَ الْهَوَاجِسِ وَالْأَوْهَامِ ،
شُخُوصًا بَادِيَةً لِلْعِيَانِ ، مَائِلَةً فِي الْخُلْدِ وَالْجَنَانِ .

وَهُوَ لَا يَفْنَأُ يَتَمَثَّلُ جَمِيعَ الْكَائِنَاتِ ، مِنْ جَمَادٍ
وَحَيَوَانٍ وَنَبَاتٍ ، وَكَوَاكِبَ وَسَيَّارَاتٍ ، وَحُرُوفٍ هِجَائِيَّةٍ
وَكَلِمَاتٍ ، وَقَوَافٍ وَحَرَكَاتٍ ، وَأَصْفَارٍ وَأَعْدَادٍ وَأَرْقَامٍ
مَضْرُوبَاتٍ وَمَقْسُومَاتٍ ، كَأَنَّمَا هِيَ أَنَايِيٌّ مِثْلُنَا ، مَوْفُورَةٌ
الْإِحْسَاسِ بِالْحَيَاةِ ، تَأَلَّمَ مِثْلَ مَا نَأَلَّمُ ، وَتَتَجَاجَى كَمَا نَتَجَاجَى ،
وَيَعْرِضُ لَهَا كَمَا تَعْرِضُ لَنَا — أَلْوَانٌ مِنَ الْأَمَانِيِّ وَالرَّغَبَاتِ ،
وَتَسْتَحِرُّ يَدْنَهَا ضُرُوبُ الْفِتَنِ وَالْعَدَاوَاتِ ، وَتُعْلِنُ فِي
مَنْطِقٍ — هُوَ عَلَى خَفَائِهِ عَنَّا — بَلِيغٌ فَصِيحٌ ، رَائِعٌ أُنْتَقَدِسَ

وَالْتَسْبِيحُ، تَذَنُّهُلُ بِصَادِقِ الدَّعَوَاتِ، فِي الْغُدُواتِ وَالْأَصَالِ
وَالرَّوْحَاتِ، خَلِيقِ الْأَرْضَيْنِ وَمُبْدِعِ السَّمَاوَاتِ.

فَلَا غُرُو إِذَا رَأَيْنَاهُ يَتَمَثَّلُ — فِي هَذِهِ الرِّسَالَةِ — طَرِيقًا
ضَيِّقًا يَتَنَهَّلُ إِلَى خَالِقِهِ أَنْ يَجْزِيَ صَاحِبَ « الْمَعْرَى »
أَحْسَنَ الْجَزَاءِ مُكَافَأَةً لَهُ عَلَى مَا بَدَّلَ مِنْ صَالِحِ الْمَسْعَى،
وَيَتَجَّهُ الدَّرَبُ إِلَى اللَّهِ أَنْ يُبَدَّلَ مِنْ شِعَابِهِ الضَّيِّقَةِ،
مَسَالِكَ وَطُرُقًا فَسِيحَةً الرَّحَابِ، تَغْدُو — إِفْرَطَ سَعَتِهَا — كَأَنَّهَا
الصَّحَارَى وَالسَّبَابِيبُ، لَا تَضِيقُ بِالْعَدَدِ الْأَوْفَرِ مِنَ الْجُيُوشِ
الْحَاشِدَةِ وَالْمَوَاكِبِ. وَأَنْ نَتَبَدَّلَ أَحْجَارُ الْأَكَمَةِ الْخُشْنَةِ،
فَتُصْبِحَ بَعْدَ خُشُونَتِهَا نَاعِمَةً، كَأَنَّهَا إِمْلَاسَتُهَا رَقٌ نَعَامٍ.
ثُمَّ يَتِمَادَى فِي خَيَالِهِ فَيَتَمَثَّلُ الْقُدْرَةُ الْإِلَهِيَّةُ قَدْ بَدَّلَتْ
إِصْحَاحِيهِ أَحْجَارَ التَّلَالِ مَوَائِدَ حَافِلَةً بِلَذَائِدِ الْإِطْعِمَةِ
وَالْأَشْرَبَةِ، يُصِيبُ مِنْهَا الْجَائِعُ وَيَرْتَوِي الْظَّمْآنُ كَمَا شَاءَ،
لَا يَتَكَبَّدُ فِي ذَلِكَ مَشَقَّةٌ وَلَا عَنَاءٌ.

٥ - من عجائب القدرة

وَالْمَعْرَى - فِي غَيْرِ هَذِهِ الرِّسَالَةِ أَيْضًا - مِنْ رَوَائِعِ
الصُّورِ الْفَنِّيَّةِ الَّتِي يَتِمَثَّلُ فِيهَا مِنْ عَجَائِبِ الْقُدْرَةِ الْإِلَهِيَّةِ ،
مَا لَا تَتَّسِعُ لَهُ هَذِهِ الْإِلِمَامَةُ الْمُوجِزَةُ ، فَلَمَنْجَبَرِيٍّ مِنْ
ذَلِكَ بِوَجَازَةٍ خَاطِفَةٍ ، تَارِكِينَ التَّفْصِيلَ لِفُرْصَةٍ أُخْرَى .
فَهُوَ يَقُولُ فِي فُصُولِهِ .

« يَقْدِرُ اللَّهُ عَلَى الْمُسْتَحِيلَاتِ : رَدُّ الْفَائِتِ ، وَجَمْعُ
الْجَسَمَيْنِ فِي مَكَانٍ ، وَمَا تَحْتَمِلُهُ الْأَلْبَابُ ، إِذَا كَانَ
لَا يُنْسَبُ إِلَى عَجْزٍ أَوْ انْتِقَاصٍ . فَإِذَا مَرَرْتَ بِعُودِ بَالٍ ،
فَاعْلَمْ أَنَّ اللَّهَ يَسْتَطِيعُ أَنْ يَكْسُوهُ أَخْضَرَ كَخَضَرَةِ الْحُسَامِ ،
حَتَّى يُورِقَ وَرَقًا ، كَمَدَدِ الرِّمَالِ ، وَيَقِفَ عَلَى كُلِّ وَرَقَةٍ
وَرَفَاءَ (حَمَامَةٍ) تَمْبِدُهُ بِالْحُلَانِ مَعْبِدِيَّاتٍ (مَنْسُوبَةٌ إِلَى
« مَعْبَدٍ ، الْمَعْنَى الْمَعْرُوفِ) » أَوْ يَقُولُ :

وَفِي قُدْرَةِ الْخَالِقِ أَنْ يَجْمَعَ الرَّاحَةَ (بَطْنُ الْيَدِ) ذَاتَ
ذَوَائِبَ ، وَالْهَامَةَ (الرَّأْسَ) كَفَاثُورِ الْأَجِينِ (خِوَانِ الْفِضَّةِ)

وَأَنْ يُجْرِيَ الْفِضَّةَ مِنَ الْفِجَاجِ . أَوْ يَقُولُ : « وَاللَّهِ
— بِقُدْرَتِهِ — يُطِيرُ ذَوَاتِ الْأَخْفَافِ » .

٦ — عصر السرعة واللاسلكي

نَحْنُ نَسْبَحُ الْخَيَالَ بِأَبْنِي الْعِلَاءِ ، فَيَسْتَبِقُ الْأَجْيَالُ ، حَتَّى
لَيَتَمَثَّلُ عَصْرُنَا الْحَاضِرُ : عَصْرُ السَّرْعَةِ الْخَاطِفَةِ وَمَا يَنْلُوهُ
مِنْ عُصُورٍ ، مُتَنَبِّئًا بِمَا كَشَفَهُ الْعِلْمُ وَمَا لَمْ يُزِحِ السُّتْرَ عَنْهُ
إِلَى الْيَوْمِ ، فيقول :

« إِنْ شَاءَ الْمَلِكُ (الله) ، قَرَبَ النَّازِحَ وَطَوَّاهُ ،
حَتَّى يَطُوفَ الرَّجُلُ — فِي اللَّيْلَةِ : الدَّائِمَةِ بِيَاضِ الشَّفَقِ مِنْ مُخْرَةِ
الْفَجْرِ ^(١) — طَوْفَهُ بِالْكَعْبَةِ ، حَوْلَ « قَف » (وَهُوَ — فِيمَا
تَقُولُ الْأَسَاطِيرُ — جَبَلٌ مُحِيطٌ بِالْأَرْضِ) ، ثُمَّ يَوُوبُ إِلَى
فِرَاشِهِ وَاللَّيْلَةُ مَا هَمَّتْ بِالْإِسْحَارِ » .

وَتَمَّةٌ يَطْفُرُ بِهِ خَيَالُهُ الْوُثَابُ ، فَيَتَمَثَّلُ فِي عَالَمِ الْأَمَانِيِّ
وَالْأَحْلَامِ ، مَا بَلَغَهُ الْعِلْمُ بَعْدَ عَصْرِهِ بِأَلْفِ عَامٍ ، فَيَتَخَيَّلُ

(١) يَدْنَى فِي اللَّيْلَةِ الْقَصِيرَةِ الَّتِي يَقْتَرِبُ نَهَايَةَ شَفَقِهَا مِنْ بَدَايَةِ فَجْرِهَا .

الاذاعة اللاسلكية التي أصبحت الآن حقيقة راهنة
بعد أن كانت وهماً من الأوهام ، فيقول :

« وَيُسَلِّمُ بِسَكَّةَ ، فَيَسْمَعُهُ أَخُوهُ بِالشَّامِ »

ثم يتأدى في خياله فيتمثل الإنسان وقد استطاع أن ينقل النار
في لحظات من مكان قصي إلى آخر ، أو يتخيلُه يغص باللقمة
وهو في « خراسان » فيُسرع إلى ماء « زمزم » ليستقي منه وزيل
غصته به ، أو يغيره من المياه البعيدة النائية ، فيقول :
« وَيَأْخُذُ النَّارَ مِنْ نِهَامَةٍ ، فَيَوْقِدُ بِهَا النَّارَ فِي يَبْرِينَ
وَقَاصِيَةِ الرَّمَالِ .

وَيَمْجَازُ بِأَكِيلَتِهِ (يَغْصُ بِالْقَمَةِ) ، فِي تُصُورِ فَرَغَانَ
(فِي خُرَاسَانَ) فَيَعْتَصِرُ بِمَاءِ الْمَضْنُونَةِ (زَمْزَم) أَوْ جِرَابِ
(مَوْضِعٍ بَعِيدٍ ، فِيهِ مَاءٌ) .

٧ — الحواس الخمس

وَمِنْ أَرْبَعِ مَا تَقْبِضُهُ فِي هَذَا الصَّدَدِ ، تَوَلُّ فِي مُنَاجَاةِ خَالِقِهِ :
« لَا يُعْجِزُكَ مُتَنَبِّعٌ فِي الْعُقُولِ ! » إِلَى أَنْ يَقُولَ :

« يَقْدِرُ رَبُّنَا أَنْ يَجْعَلَ الْإِنْسَانَ يَنْظُرُ بِقَدَمِهِ ، وَيَسْمَعُ
الْأَصْوَاتَ بِيَدِهِ ، وَتَكُونُ بَنَانُهُ مَجَارِي دَمْعِهِ ، وَيَجِدُ
الطَّعْمَ بِأَذُنِهِ ، وَيَشْمُ الرِّوَاحَ بِمَنْكِبِهِ ، وَيَمْنَى - إِلَى
الْغَرَضِ - عَلَى هَامَتِهِ ، وَهَكَذَا إِلَى أَنْ يَقُولَ :
« وَذَلِكَ - مِنْ الْقُدْرَةِ - يَسِيرُ »

٨ - تذليل الوحوش

وَقَدْ عَرَفَ الْقَارِئُ كَيْفَ تَمَثَّلَ شَاعِرُنَا - الْأَشْمَاكُ فِي
هَذِهِ الرِّسَالَةِ يَجْرِي فِي قَعَمِ الْجِبَالِ كَمَا تَجْرِي النَّعَامُ فِي الصَّحَارَى
وَالْقِفَارِ ، وَإِلَى الْقَارِئِ صُورَةٌ أُخْرَى تُثَمِّلُهُ وَهُوَ يَتَخَيَّلُ
الْقُدْرَةَ الْإِلَهِيَّةَ وَقَدْ ذَلَّتْ الْوُحُوشَ الضَّارِيَةَ الْمُفْتَرَسَةَ
فَجَعَلَتْهَا أَلِيفَةً وَدِيمَةً تَحْمِلُنَا كَمَا تَحْمِلُنَا الْخَيْلُ وَالْبَعَالُ وَالْحَمِيرُ
وَمَا إِلَيْهَا ، ثُمَّ يَتَمَثَّلُ النِّعَامَةَ الَّتِي لَا يَقْرُهَا قَرَارٌ ، وَقَدْ
حَوَّلَتْهَا الْقُدْرَةُ حَيَوَانًا ذُلُولًا هَادِئًا ، فِي مِثْلِ وَدَاعَةِ الْجَمَلِ أَوْ
الْحِمَارِ ، يَسْتَقِرُّ عَلَى جِسْمِهَا الرَّحْلُ أَوْ الْبَرْدَعَةُ وَيُوضَعُ فِي فِيهَا
الزِّمَامُ أَوْ اللَّجَامُ .

وَإِلَيْكَ النَّصَّ : « لَوْ شَاءَ رَبُّنَا سَخَّرْنَا وَحُوشَ الْبَرِّ ،
فَنَقَلْتَنَا نَقْلَ النَّعَمِ الدُّلِّ ، وَرَكِبْنَا النَّعَائِمَ بِأَزْمَةٍ وَأَقْتَابٍ » .
أَوْ يَتِمَّمُلُ الْقُدْرَةَ وَقَدْ غَيَّرَتْ مَا لَوْ مَا تَعَوَّدْنَاهُ ،
فَأَهْلَكَ الثَّرِيًّا أَوْ أَبَادَتْ نُجُومَ السَّمَاءِ قَاطِبَةً ، فَيَقُولُ :
يَجُوزُ بِحُكْمِهِ مَوْتُ الثَّرِيَّا وَأَنْ تَبْقَى السَّمَاءُ بِلاَ نُجُومٍ

٩ - قصة الصخرة

أَوْ يَتِمَّمُلُ « الْمَعْرَى » رَجُلًا حَدِيدَ الْبَصَرِ ، كَانَ عَيْنَهُ
- فِي حَدِيثِهَا وَنَفَازِهَا - عَيْنُ زُرْقَاءِ الْيَمَامَةِ الَّتِي ضُرِبَتْ بِهَا
الْأَمْثَالُ ، وَافْتَنَّتْ فِي وَصْفِهَا الْأَسَاطِيرُ الْعَرَبِيَّةُ حَتَّى زَعَمَ
الرُّوَاةُ : « أَنَّهَا نَظَرَتْ إِلَى سِرْبٍ قَطَأَ وَهُوَ حَاطِرٌ بَيْنَ نَيْقَيْنِ »^(١)
فَقَالَتْ :

لَيْتَ الْحَمَامَ إِلَيْهِ إِلَى حَمَامَتِيهِ
وَنَصَفَهُ قَدِيدَهُ^(٢) صار الحمام مِيَهُ
وَإِنَّ ذَلِكَ التَّطَا حَطَّ بِأَنْبَرِهِ عَلَى شَبَكَةٍ صَائِدٍ ، فَاصْطَادَهُ

(١) النبق : الجبل أو أعلى موضع فيه . (٢) حَسْبِي

كَلَّهُ ، فَوَجَدَهُ سِتًّا وَصِمَتَيْنِ . فَضَرَبَ الْعَرَبُ بِهَا الْمَثَلَ .
وقد أشارَ إليها النَّابِغَةُ فِي مُعَلَّقَتِهِ ، فَقَالَ يُخَاطِبُ
« النُّعْمَانُ بْنُ الْمُنْذِرِ » :

« وَاحْكُمْ ، كَحُكْمِ فَتَاةِ الْحَيِّ ، إِذْ نَظَرَتْ

إِلَى حَمَامٍ سِرَاعٍ وَارِدِ النَّمَدِ ^(١)

يُحْفُهُ جَانِبًا نَيْقٍ ، وَتُبِعُهُ

مِثْلَ الزُّجَاجَةِ ، لَمْ تُكْحَلْ مِنَ الرَّمَدِ ^(٢)

قَالَتْ : « أَلَا كَيْتَاهُ هَذَا الْحَمَامُ لَنَا

إِلَى حَمَامَتَيْنَا ، وَنِصْفُهُ ، فَقَدِ ^(٣)

فَحَسَبُوهُ ، فَأَلْفَوْهُ كَمَا حَسَبَتْ

تِسْعًا وَتِسْعِينَ ، لَمْ تَنْقُصْ وَلَمْ تَزِدْ

(١) الماء القليل .

(٢) أى تبعه عينها وهى فى مثل صفاء الزجاج ، ولم يصبهارمد قط فحتاج إلى كحل يشفيها منه .

(٣) فقد : حسب .

فَكَمَلْتُ مِائَةً فِيهَا حَمَامَتُهُ — ،
وَأَسْرَعْتُ حِسْبَةً^(١) فِي ذَلِكَ الْعَدَدِ ،

يَتَمَثَّلُ الْمَعْرَى رَجُلًا عَيْنُهُ كَعَيْنِ هَذِهِ الْفَتَاةِ حِدَّةً
وَنَفَادًا — أَوْ لَعَلَّهُ أَقْوَى مِنْهَا نَظْرًا ، وَأَحَدُ بَصَرًا — وَقَدْ
أَمْسَكَ الرَّجُلُ بِكَأْسٍ نَاصِعَةٍ شَمْفَافَةٍ صَافِيَةٍ ، تَحْتَوِي خَمْرًا
خَمْرَاءَ قَانِيَةً ، لَا يَسْكَدُ يُخْطِئُ رَائِيهَا ، حَقِيقَةً مَا فِيهَا ، وَلَوْ
كَانَ أَضْعَفَ النَّاسِ ، وَأَكْثَهُمْ نَظْرًا ، فَكَيْفَ يَمْنُ وَهُبَ
مِنْ حِدَّةِ الْبَصَرِ ، مَا لَمْ يُوهَبَهُ غَيْرُهُ مِنَ الْبَشَرِ !
يَنْظُرُ الرَّجُلُ فِيهَا تَحْوِيهِ كَأْسُهُ مِنْ خَمْرٍ ، فَلَا تَخْفَى
عَلَيْهِ حَقِيقَتُهَا بِأَذْنَى نَظَرٍ .

فَإِذَا أَتَمَّ « الْمَعْرَى » إِبْدَاعَ هَذَا اللَّوْحِ الْفَاتِنِ

(١) الحسبة : الحساب ، والمعنى ، أنها أحسنت حساب الحمام في تلك

انْتَقَلَ بِرِسْمٍ لَنَا بِرِيشَةِ الْفَنَّانِ الْمَوْهُوبِ لَوْحاً ثَانِياً
 بَارِعَ الْخَيَالِ ، نَادِرَ الْمِثَالِ ، فَأَبْدَعَ لَنَا صَخْرَةً صُلْبَةً
 مُضْمَتَةً ، يُصَوِّرُهَا خَيَالُهُ الْوَاسِعُ الْوَثَّابُ وَقَدْ بَلَغَتْ مِنْ
 الضَّخَامَةِ مَا لَا يَدُورُ بِخَلْدٍ ، وَلَا يَخْطُرُ عَلَى بَالِ أَحَدٍ . وَكَيْفَ
 يُدْرِكُ مَدَاهَا الْعَقْلُ ، وَجِبَالُ الْأَرْضِ مُجْتَمِعَةٌ تَتَضَاعَلُ
 بِالْقِيَاسِ إِلَيْهَا ، كَمَا تَتَضَاعَلُ الْهَبَاءَةُ أَوْ الذَّرَّةُ إِذَا قِيسَتْ
 إِلَى الْجَبَلِ الشَّامِخِ !

وَكَيفَ تَتَخَيَّلُهَا الظُّنُونُ ، أَوْ تَتَعَلَّقُ بِهَا الْخُدُوسُ ^(١) ، إِذَا
 قِيلَ لَهَا : « إِنَّ الشَّمْسَ الَّتِي عَرَفْنَا سُرْعَةَ جَرِّهَا لَا تَقْطَعُ
 مَدَى هَذِهِ الصَّخْرَةِ فِي أَقَلِّ مِنْ أَلْفِ عَامٍ !

ثُمَّ يَتِمَادَى خَيَالُهُ الْوَثَّابُ فَيُبْدِعُ لَوْحاً ثَالِثاً ، يُمَثِّلُ
 لَنَا فِي وَسْطِ الصَّخْرَةِ الْهَائِلَةِ ، أَضْغَرَ جِسْمٍ مُتَحَرِّكٍ يَتَخَيَّلُهُ
 الْإِدْرَاكُ . وَمَتَى أَتَمَّ « الْمَعْرَى » إِذَاعَ هَذِهِ الْأَلْوَابِ الْمَشْرِقَةِ ،
 جَمَعَ بَيْنَ صُورِهَا الْأَخَاذَةِ لِیُقَرِّبَ مَا يَتَوَخَّاهُ مِنْ غَرَضٍ وَيُدْنِي

(١) جمع حدس : وهو التخمين والتوهم .

غَايَتُهُ الْبَعِيدَةُ لِلْمُتَأَمِّلِينَ ، وَرَاحَ يَقَابِلُ بَيْنَ الصَّخْرَةِ
الْكَشِيفَةِ الْمُضْمِتَةِ ، وَالْكَأْسِ الشَّفَافَةِ الصَّغِيرَةِ ، «وَالضُّدَّ
يُظْهِرُ حُسْنَهُ الضُّدُّ» ، كَمَا يَقْوَاوْنَ . ثُمَّ يَقَابِلُ مَا تَحْوِيهِ
الصَّخْرَةُ الصَّمَاءُ ، مِنْ ذَرَّةٍ مُتَحَرِّكَةٍ - هِيَ وَحَرَكَتُهَا -
غَايَةً فِي الضَّالَّةِ وَالْخَفَاءِ ، بِمَا تَحْوِيهِ الْكَأْسُ الشَّفَافَةُ الصَّافِيَةُ ،
مِنْ خَمْرِ قَانِيَةٍ غَايَةٍ فِي الْوُضُوحِ وَالْجَلَاءِ .
فَإِذَا تَمَّتِ الْمُقَابَلَةُ الْفَنِّيَّةُ الْمُبْدَعَةُ خُلَصَ فَيَلْسُو فَنَّا
الشَّاعِرُ الْمَوْهُوبُ - إِلَى تَتِيحَتِهِ الْبَعِيدَةِ الَّتِي هَدَفَ لَهَا ،
لِيُقَرَّرَ فِي مَنْطِقٍ سَدِيدٍ ، وَبَيَانٍ فَرِيدٍ : أَنَّ ذَلِكَ الْجِسْمَ
الْمُتَحَرِّكَ الْمُتَنَاهِيَ فِي الضَّالَّةِ وَالصَّغْرِ ، لَا تَخْفَى حَرَكَتُهُ
عَنْ عَيْنِ الْخَالِقِ الْقَدِيرِ . وَكَيْفَ تَخْفَى عَنْهُ - سُبْحَانَهُ -
وَقَدْ نَمَتْ بِهَا الصَّخْرَةُ ، كَمَا نَمَتْ الْكَأْسُ لِشَارِبِهَا - وَهِيَ
فِي يَدِهِ - بِمَا تَحْوِيهِ مِنْ خَمْرٍ .

وَإِلَيْكَ النَّصُّ الْعَمَلِيُّ : «وَلَوْ كَانَتْ صَخْرَةٌ صَّمَاءً ، مَسِيرَةً

أَلْفِ عامٍ لَذُكَا (وَهِيَ الشَّمْسُ) ، فِي وَسَطِهَا أَصْغَرُ جِسْمٍ
مُتَحَرِّكٍ ، نَمَتْ نِلْكَ الصَّخْرَةُ إِلَى اللَّهِ بِحَرَكَاتٍ ذَلِكَ
الْجِسْمِ - نَمِيمَةَ الزُّجَاجَةِ الصَّافِيَةِ بِالْحُمْرِ الْقَانِيَةِ ، إِلَى
عَيْنِ الشَّارِبِ ، وَهِيَ فِي يَدِهِ : عَلَى أَنَّهُ (يَعْنِي الشَّارِبِ) فِي
النَّظَرِ كَزُرْقَاءِ الْيَمَامَةِ ، أَوْ أَحَدٍ مِنْهَا عَيْنًا . بَلْ نِلْكَ
الصَّخْرَةُ - إِلَى اللَّهِ - أَنْتُمْ فِي النَّظَرِ مِنْ صَافِي الزُّجَاجِ .

١٠ - عَلَى لِسَانِ شَاعِرٍ

وَأَيْسَ هَذَا الْخَيَالُ الْبَارِعُ الْفَسِيحُ بِمُسْتَغْرَبٍ مِمَّنْ
يَقُولُ فِي رِسَالَةِ الْغُفْرَانِ عَلَى لِسَانِ الشَّاعِرِ : «حَمِيدُ بْنُ ثَوْرٍ
الْهَلَالِيُّ» :

«إِنِّي لَا كُونُ فِي مَغَارِبِ الْجَنَّةِ ، فَالْمَحُ الصَّدِيقَ مِنْ
أَصْدِقَائِي ، وَهُوَ بِشَارِقِهَا ، وَيَأْنِي وَيَبْنِي مَسِيرَةَ أُلُوفِ
الْأَنْوَامِ لِلشَّمْسِ الَّتِي عَرَفْتَ سُرْعَةَ سَيْرِهَا فِي الدَّارِ
الْعَاجِلَةِ . فَتَعَالَى اللَّهُ الْقَادِرُ عَلَى كُلِّ بَدِيعٍ (١) .

(١) يَعْنِي بِالْبَدِيعِ هُنَا : مَا اخْتَرَعَ عَلَى غَيْرِ مِثَالٍ

وَالْقُدْرَةُ — كَمَا يَقُولُ « الْمَعْرِي » : « كَلَّمَا كُشِفَتْ
بَدَتْ لَهَا عَجَائِبُ » .

أَوْ هِيَ كَمَا يَقُولُ عَلَى لِسَانِ وَزَّةِ الْفِرْدَوْسِ فِي «رِسَالَةِ
الْغُرَّانِ» ، أَيْضًا ، « حِينَ يَسْأَلُهَا ابْنُ الْقَارِحِ ، بَعْدَ أَنْ رَأَى
مَا هَالَهُ وَحَيَّرَ عَقْلَهُ : « كَيْفَ نَفَضْتَ عَنْكَ بِلَهَ الْأَوْزِ »
فَتَجِيبُهُ الْوَزَّةُ قَائِلَةً :

« وَمَا الَّذِي رَأَيْتَ مِنْ قُدْرَةِ بَارِئِكَ ؟ إِنَّكَ عَلَى سَيْفِ
بَحْرٍ ^(١) لَا يُدْرِكُ لَهُ عِبْرٌ ^(٢) » .

« فَسُبْحَانَ اللَّهِ — كَمَا يَقُولُ « الْمَعْرِي » فِي فصوله
الرَّائِعَةِ — عِدَّةُ الْحَنْدَسِ ^(٣) ، إِذَا قُسِّمَ نَقْطًا » .

وَسَتَمُرُّ طَائِفَةٌ مِنْ فُنُونِ إِبْدَاعِهِ فِي هَذَا الْبَابِ ، مِمَّا
نَعْرِضُ لَهُ فِي مُنَاسَبَاتِهِ : فِي هَذِهِ الرِّسَالَةِ ، وَفِي «حَدِيثَةِ أَبِي

(١) سيف البحر : ساحله (٢) العبر : الشط (٣) الحندس : الظلام .

الملاء ، و « قصص الحيوان » و « دائرة معارفه » متى
أذن الله لها بالظهور .

أمّا « رسالة الغفران » ، فهي — فيما يرى رواد
الأدب الملائي ومريدوه ، من أعلام الشرق والغرب —
آية آياته ، وغاية غاياته ، في تصوير القدرة الإلهية
والافتنان في عرض بدائعها وخوارقها في العالم الآخر ،
فليرجع إليها من شاء .

(١) وقد ظهرت ترجمة إنجليزية لها مقتبسة من الطبعة الثالثة ، تعاون مع شارح
هذه الرسالة على إخراجها الأديب الإنجليزي المسترج . برا كنبرى ، ولقيت
من أدباء الغرب ومفكره ، ما هي جديرة به من التقدير والاعجاب .

الفصل الأول

الطبيعة الإنسانية

١ - لو غُرِبِلَ الناس

حَسْبُنَا أَنْ نَجْتَرِي - مِنْ هَذَا الْخُضَمِّ الزَّائِرِ - بِهَذِهِ
الْأَسْطُرِ الْقَلَائِلِ الَّتِي قَبَسْنَاهَا لِنَدُلَّ عَلَى لَمَعَةِ خَاطِفَةٍ مِنْ
أَرَاءِ فَيَلَسُّوْنَا الْبَارِعِ فِي الْقُدْرَةِ الْإِلَهِيَّةِ الَّتِي صَاغَتْ الطَّبْعَ
الْإِنْسَانِي كُلَّهُ مِنْ طِينَةٍ خَائِنَةٍ غَادِرَةٍ ، غَيْرِ وَفِيَّةٍ
وَلَا شَاكِرَةٍ ، فَاسْتَحَقَّ أَنْ يَقُولَ فِيهِ :
«لَوْ بُعِثَ طَائِرٌ يَخْتَصِفُ ، كُلُّ مَنْ فُوَّادُهُ نَطِيفٌ (فَاسِدٌ)
لَسَلَبَ الْأَرْضَ أَنْامَهَا» .

أَوْ يَقُولَ :

لَوْ غُرِبِلَ النَّاسُ ، كَيْمَا يَعْدَمُوا سَقَطًا
إِلَى أَنْ يَقُولَ :

سُبْحَانَ مَنْ أَلْهَمَ الْأَفْوَامَ كَلَامَهُمْ
أَمْ رَأَيْتُودُ إِلَى خَبِيلٍ وَخَبِيلٍ

٢ - طريق الإصلاح

إِنَّ خَيْالَ الْمَعْرَى - عَلَى مَا يَرَاهُ رُوَادُّ أَدْبِهِ - مِنْ
 أَنْفَسَاحِ جَوَانِبِهِ ، وَاتِّسَاعِ آفَاقِهِ ، وَرَحَابَةِ عَوَالِمِهِ -
 لَيْسَ كَإِنْ يُنْكَرُ عَلَى الطَّبِيعَةِ الْإِنْسَانِيَّةِ ، أَنْ تَكُونَ وَفِيَّةً ،
 وَلَا يَتَرَدَّدُ فِي إِعْلَانِ حُكْمِهِ فِي كُلِّ فُرْصَةٍ ، فَيَقُولُ :
 مَنْ ادَّعَى أَنَّهُ وَفِيٌّ فَلْيَنْتَسِبْ فِي سِوَى الْأَنَامِ
 وَلَا يَفْتَأْ يَصِفُهَا بِأَنَّهَا غَادِرَةٌ طَافِحَةٌ بِالشَّرِّ ، لَا سَبِيلَ
 إِلَى إِصْلَاحِهَا وَتَقْوِيٍّ بِهَا إِلَّا إِذَا أَذِنَتِ الْقُدْرَةُ الْإِلَهِيَّةُ الَّتِي
 خَلَقَتْهَا وَطَبَعَتْهَا عَلَى الشَّرِّ ، وَجَبَلَتْهَا عَلَى الْأَذِيَّةِ وَالْمُدْوَانِ .
 كَمَا خَلَقَتْ مَعْدِنَ الْحَدِيدِ وَجَعَلَتْهُ صَالِحًا لِصُنْعِ السُّيُوفِ
 الَّتِي تَسْفِكُ الدَّمَاءَ ، وَالْحَدَائِدِ تُعْمَلُ بِهَا أَرْجُلُ الْخَيْلِ
 لِتَحْمِلَ الْمُغِيرِينَ السَّفَاحِينَ :

وَاللَّهُ مُذْ خَلَقَ الْمَعَادِنَ عَالِمٌ
 سَفَكَ الدَّمَاءَ بِأَرْجَالِ أَعْصُمَا
 أَنَّ الْحَدَادَ الْبَيْضَ مِنْهَا يُجْعَلُ
 بِالْخَيْلِ تُلَاحِمُ بِالْحَدِيدِ وَتُعْمَلُ
 اللَّهُ الَّذِي أَبْدَعَ الْكَائِنَاتِ ، وَخَلَقَ جَوَاهِرَ الْأَشْيَاءِ ،

وخواصّ الموجودات، هو — وحده — القادر على إصلاح
 هذا الينبوع المتفجر — في طبيعتنا الإنسانية الفاسدة —
 ونضوب هذا المعين الفياض باللون النفاق والطغيان ،
 فهو يقول :

« يَسْتَقِيمُ الْعَالَمُ إِذَا أَدِنَ إِلَهُ الْمَخْلُوقِينَ » .

٣ — خيانات الأعضاء

وَلِلْمَعْرِىِّ آرَاءَ طَرِيفَةٍ فِي وَصْفِ الْخِيَانَةِ الَّتِي جُبِلَ
 عَلَيْهَا الطَّبْعُ الْإِنْسَانِي ، وَتَقْسِيمِهَا وَتَتَبُّعِهَا بِالتَّحْلِيلِ
 وَالتَّمْحِصِ . فَهُوَ يُقَرِّرُ أَنَّ الْإِنْسَانَ طَرِيقَيْنِ يَسْلُكُهُمَا
 لِتَحْقِيقِ مَا تَأْصَلُ فِي نَفْسِهِ مِنْ غَرِيزَةِ الْخِيَانَةِ : طَرِيقًا
 خَفِيَّةً مَسْتُورَةً ، وَطَرِيقًا ظَاهِرَةً مَكْشُوفَةً . فَالْأُولَى خِيَانَةٌ
 يَسْتَأْثِرُ بِهَا الضَّمِيرُ الْإِنْسَانِي وَحْدَهُ ، وَلَيْسَ يَعْلَمُهَا إِلَّا اللَّهُ
 الْخَبِيرُ بِمَا تَنْطَوِي عَلَيْهِ الْجَوَانِحُ وَتَفِيضُ بِهِ الْقُلُوبُ مِنْ
 فُنُونِ الْغَدْرِ وَضُرُوبِ النِّفَاقِ . وَالثَّانِيَّةُ تَشْتَرِكُ فِيهَا

أَعْضَاءُ الْجِسْمِ الْإِنْسَانِيِّ وَحَوَاسِهِ ، وَتُسَاهِمُ فِي افْتِرَافِهَا
بِأَوْفَى نَصِيبٍ ، فَمِنْهَا :

خِيَانَةُ الْعَيْنِ : إِذَا رَأَتْ مَا لَا يَجُوزُ لَهَا أَنْ تَرَاهُ ،
وَخِيَانَةُ الْأُذُنِ : إِذَا أَصْغَتْ إِلَى هُجْرِ الْقَوْلِ وَأَذَاهُ ،
وَخِيَانَةُ اللِّسَانِ : إِذَا اخْتَرَعَ الْحَدِيثَ أَوْ افْتَرَاهُ ،
وَخِيَانَةُ الْفَمِ : إِذَا أَكَلَ الْحَرَامَ أَوْ اشْتَهَاهُ ،
وَخِيَانَةُ الْيَدِ : إِذَا اغْتَالَتْ الْمَالَ مِمَّنْ حَوَاهُ ، وَلَوْ بَدَّدَهُ
صَاحِبُهُ وَأَفْنَاهُ ،

وَخِيَانَةُ الْقَدَمِ : إِذَا مَشَتْ فِي طَرِيقِ الْأَثَمَةِ وَسَمَلَكْتَ
سَبِيلَ الْغَوَاةِ .

وَكُلُّ عَضْوٍ أَعَانَ صَاحِبَهُ عَلَى ارْتِكَابِ إِثْمٍ ، أَوْ يَسَّرَ
لَهُ افْتِرَافَ خِيَانَةٍ ، فَهُوَ — كَصَاحِبِهِ — آثِمٌ خَوَّانٌ .
وَالَيْكَ النَّصُّ الْعَلَانِيُّ :

« الْخِيَانَةُ جِنْسَانِ :

خِيَانَةُ الضَّمِيرِ ، فَتِلْكَ لَا يَشْعُرُ بِهَا غَيْرُ اللَّهِ .

وَإِخْيَانَةُ الظَّاهِرَةِ ، تَنْقَسِمُ عَلَى أَقْسَامٍ :

خَانَتِ الْعَيْنُ : بِنَظَرٍ وَاطِّلاعٍ .

وَالْأُذُنُ : فِي إِصْغَاءٍ وَاسْتِمَاعٍ .

وَاللِّسَانُ : فِي قَوْلٍ وَاخْتِرَاعٍ .

وَالْفَمُّ : بِمَا كُلُّ مُضَاعٍ .

وَالْيَدُ : فِي اكْتِسَابِ مَالِ الْمُسِيئِ (الْمُضَيِّعِ لِمَالِهِ)

وَالْقَدَمُ : إِذَا نَقَلَهَا لِلْإِثْمِ مَسَاعٍ .

وَكَلُّ عُضْوٍ أَعَانَكَ عَلَى الْإِخْيَانَةِ فَقَدْ خَانَ .

٤ - خِيَانَةُ الضَّمِيرِ

وَخِيَانَةُ الضَّمِيرِ - فِيمَا يَرَى شَاعِرُنَا - أَقْبَحُ الْإِخْيَانَاتِ .

وَمَتَى فَسَدَ الضَّمِيرُ ، وَخَبِثَ الْقَلْبُ ، وَسَاءَتِ النِّيَّةُ ، فَلَنْ

يَصْدُرَ عَنْ صَاحِبِهَا إِلَّا كُلُّ قَبِيحٍ فَاسِدٍ :

« إِذَا اعْتَلَّتِ الْأَفْعَالُ جَاءَتْ عَلَيْهِ لِيلَةٌ

كَحَالَاتِهَا - أَشْمَأَوْهَا وَالْمَصَادِرُ ،

وَكُلُّ مَا يُبْدِيهِ الْعَابِدُ مِنْ ضُرُوبِ الْعِبَادَاتِ ، وَفُنُونِ
الطَّاعَاتِ ، عَبَثٌ لَا غِنَاءَ فِيهِ ، مَتَى فَسَدَتِ الضَّمَائِرُ ،
وَسَاءَتِ النِّيَّاتُ . فَلَا فَائِدَةَ مِنَ الصَّوْمِ ، إِذَا لَمْ تَخْلُصِ
النَّفْسُ وَيَطْهُرِ الْقَابُ ، وَتَصْدُقِ الْعَقِيدَةُ . وَلَنْ يَصِحَّ
الصَّوْمُ — كَمَا يَقُولُ — إِلَّا لِمَنْ جَاهَدَ وَصَامَ عَنْ لُحُومِ
النَّاسِ .

« وَصَوْمُ النِّيَّةِ » — فِيمَا يُقَرَّرُ وَيُثَبَّتُ — « أَفْضَلُ
الصِّيَامِ ، لِأَنَّ الْجَوَارِحَ تَتَّبِعُ الْقَلْبَ ، وَرُبَّمَا صَامَتِ الْيَدُ ،
وَأَفْطَرَ اللِّسَانُ . . . » .

وَمَاذَا تُجْدِي إِحْلَاوَةُ اللِّسَانِ إِذَا فَسَدَ الضَّمِيرُ ، وَخَبِثَ
الْجَنَانُ (الْقَلْبُ) ؟ وَلَنْ يَنْفَعَ أَحَدًا مَعْسُولُ الْكَلَامِ ، إِذَا اضْمَرَّ
الصَّاحِبُ لِصَاحِبِهِ الْغَدْرَ وَالْخُدَيْعَةَ .

وَفِي هَذَا يَقُولُ مَتَأَلَّمًا : « أَمَّا الْفَهْمُ فَيَسِيكِي الْمَنْطِقِ
وَأَمَّا نِيَّةُ الْخُلْدِ فَقَطْرَانِ » .

وَمَتَى كَانَ الطَّبَعُ الْإِنْسَانِي الَّذِي يَرْمِزُ إِلَيْهِ بِالْقَلْبِ
 مَرَّةً ، وَبِالضَّمِيرِ ثَانِيَةً ، وَبِالغَرِيزَةِ ثَالِثَةً وَبِالْمُحِجَّةِ ، أَوْ
 النَّفْسِ ، أَوْ الْفُؤَادِ الْخ ، مَا دَامَ ذَلِكَ الطَّبَعُ — أَوْ مَا شِئْتَ
 فَسَمِّهِ مِنْ أَسْمَاءٍ — هُوَ الْمُحَرِّكُ لِلْجِسْمِ وَأَعْضَائِهِ ، فَعَلِيَّةٌ
 وَحْدَهُ تَقَعُ تَبِعَاتُ كُلِّ مَا يَصْدُرُ عَنْهَا مِنْ جَرَائِمٍ وَآثَامٍ .
 فَهُوَ يَقُولُ :

« وَلَيْسَ لِللِّسَانِ ذَنْبٌ ، إِنَّمَا الذَّنْبُ لِمُحَرِّكِ اللِّسَانِ ،
 كَفَارِسٍ طَعَنَ بِرُمَحٍ ، فَسَقَطَ غَيْرَ مُسْتَحِقٍّ لِلْقَتْلِ ، فَالْجَانِي
 الْفَارِسُ ، وَالرُّمَحُ غَنِيٌّ عَنِ الْإِعْتِدَارِ ^(١) . وَإِذَا سَمِعْتَ الْقَدَمَ

(١) لَا يَسْمَعُ الْبَاحِثُ أَنْ يَفْعَلَ الْإِشَارَةَ فِي هَذَا الْمَقَامِ إِلَى مَا أَبْدَعَهُ الْفِيلَسُوفُ
 الْأَنْدَلُسِيُّ : « أَبُو بَكْرٍ مُحَمَّدُ بْنُ طَفِيلٍ » (المتوفى عام ٥٨١ هـ) . حِينَ عَرَضَ
 فِي رِسَالَتِهِ « حَيُّ بْنُ يَقْظَانَ » ، لِلْحَدِيثِ عَنِ الرُّوحِ وَالْجِسْمِ ، فَقَدْ شَرَحَ فِي لِبَاقَةٍ
 بَارِعَةٍ ، كَيْفَ أَطَالَ « ابْنُ يَقْظَانَ » — بَطْلُ الْقِصَّةِ — تَأْمُلُهُ ، بَعْدَ أَنْ مَاتَتْ
 الظُّبْيَةُ الَّتِي أَرْضَعَتْهُ ، وَكَيْفَ انْتَهَى بِهِ تَفَكُّرُهُ إِلَى طَائِفَةٍ مِنَ الْحَقَائِقِ الرَّائِعَةِ فَعَرَفَ
 أَنَّ هَذَا الْجِسْمَ — بِجَمَلَتِهِ — إِنَّمَا هُوَ كَالْآلَةِ لِدَلَاكِ (الرُّوحِ) ، وَبِمَنْزِلَةِ الْعَصَى
 الَّتِي اتَّخَذَهَا هُوَ لِقِتَالِ الْوُحُوشِ .

إِلَى أَنْ قَالَ :

« فَنَبِّينُ لَهُ أَنَّ كُلَّ شَخْصٍ مِنْ أَشْخَاصِ الْحَيَوَانَ — وَإِنْ كَانَ كَثِيرًا بِأَعْضَائِهِ
 وَتَفَنُّنِ حَوَاسِهِ وَحَرَكَاتِهِ — فَإِنَّهُ وَاحِدٌ بِذَلِكَ الرُّوحِ ، الَّذِي مَبْدُؤُهُ مِنْ قَرَارِ

إِلَى قَبِيحٍ ، فَالْجَرِيْمَةُ لِنَاقِلِهَا ، مِثْلُ رَجُلٍ رَكِبَ فَرَسًا ،
فَأَخَافُ سَبِيلًا فَاسْتَوْجِبَ الْمُقْبُوْبَةُ الرَّجُلُ دُونَ الْجَوَادِ .
وَإِذَا خَانَتْ الْيَدُ ، فَالْبَاسِطُ لَهَا الْخَبُّ الْخَوْوُنُ ، كَالْمَغْتَرَفِ
مِنْ إِنْاءٍ جَارِهِ بِإِنْاءٍ ، مَا عَلِمَ إِنْاءُهُ بِمَا كَانَ . وَإِذَا نَظَرْتَ
الْعَيْنُ ، فَتِلْكَ الْمَصْبَاحُ اسْتَعَانَ بِهَا السَّارِقُ عَلَى اجْتِلااءِ
بَزٍّ وَجَهَازٍ . . . الخ » أَوْ يَقُولُ :

واحد ، وانقسامه في سائر الأعضاء منبعت منه ، وأن جميع الأعضاء إنما هي خادمة
له ، أو مؤدية عنه .

وأن منزلة ذلك الروح في تصريف الجسد ، كمنزلة من يحارب الأعداء بالسلح
التام ، أو بصيد جميع صيد البحر والبر ، فيعد لكل جنس آلة يصيده بها .
وهكذا إلى أن يقول :

« كذلك ، ذلك الروح الحيواني واحد .

وإذا عمل : بآلة العين — كان فعله إبصارا .

وإذا عمل : بآلة الأذن — كان فعله سمعا .

وإذا عمل : بآلة الأنف — كان فعله شمّا .

وإذا عمل : بآلة اللسان — كان فعله ذوقا .

وإذا عمل : بالجلد واللحم — كان فعله لمسا .

وإذا عمل : بالعضو — كان فعله حركة .

وإذا عمل : بالكبد كان فعله غذاء واغتذاء .

ولكل واحد — من هذه — أعضاء تخدمه ، ولا يتم لشيء من هذه فعل

إلا بما يتصل إليها من ذلك الروح .

وقد قبسنا هذه القصة الرائعة فبناها من القصص العربية للأطفال .

« لَوْ خَافَ الْجَفْنُ لَسَهَرَ ، وَلَكِنَّ الْفُؤَادَ أَشْرُّ »
 فَالطَّبِيعَةُ أَوْ الْغَرِيزَةُ الْإِنْسَانِيَّةُ — كَمَا يَرَاهَا شَاعِرُنَا —
 تَسْتَعِينُ بِكُلِّ مَا تَمْلِكُهُ مِنْ عَتَادٍ وَقُوَّةٍ جُحْمَانِيَّةٍ لِتَبْلُغَ
 مَا تَتَوَخَّاهُ مِنْ آرَابٍ خَائِنَةٍ فَاجِرَةٍ ، وَنَقَائِصَ مَسْتُورَةٍ
 وَظَاهِرَةٍ .

وَالْمَعْرَى — فِي مُحَاوَرَتِهِ مَعَ نَفْسِهِ — لَفَتَاتٌ بَارِعَةٌ يُحْسِبُنَا
 مِنْهَا قَوْلَهُ :

« اللَّهُ خَلَقَنِي لِأَمْرٍ ، حَاوَلْتُ مُوَاهِدَهُ ، فَأَلْفَيْتُ الْمُبْهَمَ
 بَغَيْرِ انْفِرَاجٍ ، وَفِطَامُ ابْنِ الْعَامِئِينَ أَيْسَرُ مِنْ فِطَامِ ابْنِ
 الْأَعْوَامِ ، وَأَعْيَا تَأْدِيبُ الْهَرَمِ عَلَى الْأَرْبَابِ . قَدْ خَلَصْتُ
 مِنَ الْجِبَالَةِ ، فَكَيْفَ عُدْتُ ، وَعَلَى عِلْمٍ وَضَعْتُ الْقَدَمَ فِي
 النَّارِ . وَهَذَا يَقُولُ مُبْدِعًا :

« أَسْعَى لِلنَّفْسِ فِيمَا تَسْكُرُهُ ، كَأَنِّي لَهَا غَاشٍ .

أَنَا وَهِيَ ، شَيْءٌ لَا يَنْتَازُ .

تَرَادُّ الْمَلَامَةِ كَأَنَّا اثْنَانِ .

ثُمَّ يَقُولُ : «إِنْ جَنَّتْ عَلَىَّ أَوْ جَنَيْتُ ، كَيْفَ يَقَعُ الْقِصَاصُ ؟»

٥- غريزة الجسم

على أنه لا يُعْنِي الجسمَ أحياناً من اللوم والتعنيف ، فيقولُ فكيف لا تَخْبِثُ النفسُ التي جُمِلَتْ

من جِسْمِهَا في وِعَاءٍ كُلُّهُ دَنَسٌ

أو يقول :

«فَإِنْ لَأَجْسَادُ الْأَنَامِ غَرَائِزًا إِذَا حَرَكَتْ لِلشَّرِّ صَاحِبَهَا بَاجِلًا»
والجسم بعد كُلِّ شَيْءٍ هُوَ - فيما يراه - الأداةُ التي يُحَقِّقُ بِهَا الطَّبِيعُ الْإِنْسَانِيَّ مَا يَتَوَخَّاهُ ، مِنْ شُرُورِهِ وَأَذَاهُ .

٦ - ثبات الطبع

وَجُمْهُورُ قَوْلِهِ وَفَلَسَفَتُهُ تُؤَيِّدُ رَأْيَهُ فِي أَنَّ الطَّبِيعَ رَاسِخٌ
رَسُوخَ الْجِبَالِ ، وَأَنَّ كُلَّ مُحَاوَلَةٍ لِتَحْوِيلِهِ ، إِنَّمَا هِيَ مُحَاوَلَةٌ
عَقِيمَةٌ لَا تُجْدِي ، فَهُوَ تَارَةً يُشَبِّهُهُ بِالْهَضَابِ فيقول :

«وَالطَّبْعُ يَثْبُتُ كَالْهَضَابِ، وَمَنْ يَرْمِ
نَقْلًا لَهُ، يَعْجِزُ، وَيَعْنَى بِنَقْلِهِ»
ثُمَّ يَنْعَتُهُ بِالْفَسَادِ، وَيُعَلِّنُ يَأْسَهُ مِنْ إِصْلَاحِهِ، فَيَقُولُ:
«وَجِبِلَةُ النَّاسِ الْفَسَادُ، فَضَلَّ مَنْ
يَسْمُو بِحِكْمَتِهِ إِلَى تَهْذِيبِهَا»
أَوْ يَقُولُ:

«فَلَا تَأْمُلْ مِنَ الدُّنْيَا صِلَاحًا فَذَاكَ هُوَ الَّذِي لَا يُسْتَطَاعُ»

٧ - الطبع واللون

وَتَارَةً يُمَثِّلُهُ بِاللَّوْنِ، وَيُمَثِّلُ مَنْ يُحَاوِلُ تَغْيِيرَ طَبْعِهِ
بِمَنْ يُحَاوِلُ تَغْيِيرَ لَوْنِهِ، وَيَسْأَلُ نَفْسَهُ سُؤَالَ الْيَائِسِ:
«أَيَسْتَطِيعُ الْغُرَابُ أَنْ يُبَدِّلَ سَوَادَ لَوْنِهِ، مَهْمَا بَدَّلَ مِنْ
جُهْدٍ؟»

وَيَقُولُ:

«وَمَا فَسَدَتْ أَخْلَاقُنَا بِاخْتِيَارِنَا
وَلَيْكِنْ بِأَمْرِ سَبَبَتِهِ الْمَقَادِرُ

فَقُلْ لِلْغُرَابِ الْجَوْنُ ، إِنْ كَانَ سَامِعًا :
 أَأَنْتَ عَلَى تَغْيِيرِ لَوْنِكَ قَادِرٌ ؟
 أَوْ يَقُولُ :

« أَتَصِحُّ تَوْبَةً مُذْرِكٍ مِنْ كَوْنِهِ ^(١)
 أَوْ أَسْوَدٍ مِنْ لَوْنِهِ فَيَتَوْبَا »
 ٨ — الطبع والهوى

وَرُبَّمَا دَارَ بِأَخْلَادِنَا أَنْ نَسْأَلَهُ لَعَلَّهُ يُفْضِي إِلَيْنَا بِمَصْدَرِ
 هَذِهِ النَّزَعَاتِ الشَّرِيرَةِ ، وَالْأَهْوَاءِ الْجَامِحَةِ ، وَمِنْ أَىِّ
 مَعِينٍ تَنْبُعُ ، وَمِنْ أَىِّ بُذُورٍ تَنْبُتُ ، لَعَلَّنَا نَقْتَلِعُ تِلْكَ
 الْبُذُورَ الْفَاسِدَةَ ، وَنَسْتَأْصِلُ دَوَاعِيهَا ، فَإِذَا وَجَّهْنَا إِلَيْهِ
 هَذِهِ الْأَسْئَلَةَ . أَجَابَنَا أَرْوَعُ إِجَابَةٍ فَنِيَّةٍ . فَمَثَّلَ لَنَا الطَّبْعَ
 الْإِنْسَانِيَّ بِالمَاءِ ، وَمَثَّلَ لَنَا مَا يَنْشَأُ فِيهِ مِنْ نَوَازِعَ وَأَهْوَاءَ ،
 بِالنَّفَاقِيعِ الَّتِي تَنْشَأُ عَلَى سَطْحِهِ ، فَقَالَ :
 وَالْقَلْبُ كَالْمَاءِ ، وَالْأَهْوَاءُ طَافِيَةٌ

عَلَيْهِ ، مِثْلُ حَبَابِ الْمَاءِ فِي الْمَاءِ

(١) المعنى : هل يصح أن يتوب كائن موجود من أنه كان ووجد ؟

٩ - طبائع الأجيال

فَإِذَا سَأَلْنَاهُ : « خَبَرْنَا يَا شَيْخَ الْمَعْرَِّةِ : مَتَى فَسَدَتْ
النِّيَّاتُ ، وَارْتَكَسَتْ الطَّبَائِعُ ؟ » أَجَابَنَا مُتَثَبِّتًا عَابِسًا :
مَضَى الزَّمَانُ وَنَفْسُ الْمَرْءِ مُوَلَعَهُ

بِالشَّرِّ ، مِنْ قَبْلِ هَابِيلَ وَقَابِيلَ
أَتَرَاهُ يَعْنِي أَنَّ الشَّرَّ مُتَأَصِّلٌ فِي النَّفْسِ مُنْذُ آدَمَ :
وَالِدِ « هَابِيلَ » وَ « وَقَابِيلَ » ؟ مَنْ يَذَرِي ! فَلَعَلَّهُ يَرْمِي
إِلَى أَبْعَدَ مِنْ هَذَا الْمَعْنَى وَأَعَمَّقَ . وَلَعَلَّهُ يَعْنِي أَنَّ الشَّرَّ أَقْدَمَ
مِمَّا حَسِبْنَا ، فَلَيْسَ « آدَمُ » — فِي مَذْهَبِ الْعَقْلِ عِنْدَهُ —
أَوَّلَ إِنْسَانٍ . فَلَعَلَّ أَوَادِمَ أُخْرَ قَدْ جَاءُوا قَبْلَهُ فِي غَابِ
الْأَحْقَابِ ، فَهُوَ يَقُولُ :

« وَمَا آدَمُ — فِي مَذْهَبِ الْعَقْلِ — وَاحِدٌ

وَلَكِنَّهُ — عِنْدَ الْقِيَاسِ — أَوَادِمُ »

أَلَيْسَ هَذَا — فِي مَذْهَبِ الْعَقْلِ مُمَكِّنًا ؟ بَلَى وَهُوَ

مَيَسُورٌ مَعْقُولٌ :

« جَائِزُهُ أَنْ يَكُونَ « آدَمُ » هَذَا

قَبْلَهُ آدَمُ عَلَى إِثَرِ آدَمِ »

فَإِذَا سَأَلْنَاهُ مُتَعَجِّبِينَ : « أَلَمْ يَصْلُحْ فِي أَىِّ زَمَنِ ؟ »

أَجَابَنَا : « كَلَّا لَمْ يَصْلُحِ الطَّبَعُ فِي أَىِّ عَصْرٍِ مِنَ الْعُصُورِ ،

وَلَمْ يَكْرُمْ فِي أَىِّ جِيلٍ مِنَ الْأَجْيَالِ » ، قَالَ :

« فَالطَّبَعُ فِي كُلِّ جِيلٍ طَبَعٌ مَلَامَةٌ

وَلَيْسَ فِي الطَّبَعِ مَجْبُولٌ عَلَى الْكَرَمِ »

ثُمَّ قَالَ لَنَا :

هَذِهِ إِرَادَةُ اللَّهِ وَقَضَاؤُهُ ، فَلْنُدْعِنِ لَهُذِهِ الْإِرَادَةَ

وَلَا نَعْتَرِضْ ، فَإِنَّهَا :

جِبِلَّةٌ بِالْفَسَادِ وَاشْجَعَةٌ إِنْ لَامَهَا الْعَرَبُ لَامَ جَابِلَهَا

فَإِنْ سَأَلْنَاهُ : « وَهَلْ اخْتَصَّتْ بِالْغَدْرِ وَالْخِيَانَةِ أُمَّةٌ

دُونَ أُمَّةٍ ؟ » أَجَابَنَا مُتَثَبِّتًا : « كَلَّا ، بَلْ هُمْ فِي الْغَدْرِ

وَالْخِيَانَةِ سَوَاءٌ :

أَحْلُلْ بِمَنْ شِئْتَ ، لَا يُعَدِّمُكَ نَائِبَةٌ

خَانُ الْيَمَانُوفِ طُرًّا وَالشَّامُونَ

فَإِنْ قُلْتَ لَهُ : « لَعَلَّ فِي غَيْرِ أَهْلِ الشَّامِ وَالْيَمَنِ ،

مَنْ يُرْضِيكَ مِنَ الشُّعُوبِ » قَالَ عَابِسًا :

« كُنْ مِنَ الرُّومِ ، أَوْ مِنَ التُّرْكِ ، أَوْ مِنَ الْفُرْسِ ،

أَوْ مِنْ أَىِّ جَنْسٍ مِنْ أَجْنَاسِ الْبَشَرِ ، وَاتَّخِذْ أَىِّ صُورَةَ

مِنْ صُورِ الْإِنْسَانِيَّةِ ، فَإِنَّ هَذِهِ الصُّورَةَ دَلِيلٌ عَلَى مَوْفُورِ

شَرِّكَ ، وَلَوْ لَمْ طَبْعِكَ ، وَمَا دُمْتَ عَلَى صُورَةِ الْإِنْسَانِ ،

فَهِيَ بِلا شَكٍّ :

صُورَةُ خَبَرَتْ بِأَنَّكَ مُجِبُّو لَعَلَى الشَّرِّ ، وَالْمُهَيِّمِينَ خَازِي

وَإِخْتِلَافٌ مِنْ مَنْصِبٍ وَبِلَادٍ وَاتِّفَاقٌ عَلَى رِضَا بِالْمَخَازِي

٨ — الْخَيْرُ وَالشَّرُّ

إِنَّ الشَّرَّ — فِيمَا يَرَى « أَبُو الْعَلَاءِ » — أَصْلُهُ نَالِدٌ فِي

الطَّبْعِ ، وَالْخَيْرُ عَارِضٌ طَرِيفٌ مُسْتَجِدٌّ عَلَيْهِ ، كَمَا أَنَّ

الظُّلُمَةُ أَصْلٌ وَالنُّورُ طَارِئٌ :

وَكَانَ الشَّرُّ أَصْلَهُ فِيهِمْ وَكَذَلِكَ النُّورُ حَدِيثٌ فِي الظُّلْمِ
وَهُوَ يَرَى أَنَّ كُلَّ مَا يَكْتَنِفُ الْبَاحِثَ كَفَيْلٌ بِإِقْنَاعِهِ
بَصِيحَةٌ هَذَا الزَّعْمُ .

فَالطَّبَّاعُ مُجْبُولَةٌ عَلَى الشَّرِّ : طِبَاعُ الْأَغْنِيَاءِ وَالْفُقَرَاءِ
جَمِيعًا . وَهَذَا دَلِيلٌ عَلَى أَنَّهَا تَسْتَقِي مِنْ مَعِينٍ وَاحِدٍ . انْظُرْ
إِلَى ذَلِكَ الْفَقِيرِ الْمُعْدِمِ : كَيْفَ يَجْزِي حِمَارَهُ الَّذِي يَحْمِلُ
عَلَيْهِ أَثْقَالَهُ أَسْوَأَ الْجَزَاءِ ، دُونَ أَنْ يُسَلِّفَ إِلَيْهِ الْحِمَارُ
إِسَاءَةً أَوْ يَجْتَرِحَ ذَنْبًا .

إِنَّهُ لَيَرَى حِمَارَهُ قَدْ جَهَدَهُ طَوْلُ سَيْرِهِ ، وَأَعْجَزَهُ ثِقَلُ
حِمْلِهِ ، فَوَقَفَ بَرْهَةً قَصِيرَةً لَعَلَّهُ يَسْتَجْمَعُ قُوَّتَهُ وَيَسْتَأْنِفُ
سَعْيَهُ ، فَلَا يَكَادُ الْحِمَارُ يَتَوَانَى عَنِ السَّيْرِ حَتَّى يُشَوِّرَ صَاحِبُهُ
عَلَيْهِ مَغِيظًا مُغْضَبًا . وَقَدْ نَسِيَ فِي لَحْظَةٍ وَاحِدَةٍ كُلَّ
مَا أَسْلَفَهُ إِلَيْهِ ذَلِكَ الْخَادِمُ الصَّابِرُ مِنْ صَنِيعٍ ، فِيهِ هَوَى عَلَى
جِسْمِهِ بَعْصَاهُ دُونَ أَنْ تَأْخُذَهُ فِيهِ شَفَقَةٌ أَوْ رَحْمَةٌ . ذَلِكَ

مَا يَفْعَلُهُ الْفَقِيرُ ، وَهُوَ أَقْلُ مِنَ الْغَنِيِّ شَرًّا ^(١) ، وَأَدْنَى إِلَى
تَفْهَمُ مَعَانِي الرَّحْمَةِ وَالشَّفَقَةِ وَمَزَايَاهُمَا . فَلَمَنْصِتٌ إِلَى
بَيَانِ الْمَعْرِى . وَلَنْتَمِيعٌ أَذْهَانَنَا بِهَذَا اللَّوْحِ الْفَنِيِّ
الصَّادِقِ الَّذِي أَبْدَعَ فِيهِ تَصْوِيرَ تِلْكَ الْمَعَانِي الرَّائِعَةِ ،
إِذَا قَالَ :

أَلَمْ تَرَ أَنَّ الْخَيْرَ يَكْسِبُهُ الْحَجَا
طَرِيفًا ، وَأَنَّ الشَّرَّ فِي الطَّبْعِ مُتَلَدٌ
لَقَدْ رَأَيْتُ مَعْدَى الْفَقِيرِ مَجْهَلَهُ
عَلَى الْعَيْرِ ضَرْبًا ، سَاءَ مَا يَتَقَلَّدُ
يُحْمَلُهُ مَا لَا يُطِيقُ ، فَإِنْ وَنَى
أَنَاخَ عَلَى ذِي فَتْرَةٍ ^(٢) يَتَجَلَدُ
٩ - الطبع والخلق

عَلَى أَنَّ «أَبَا الْعَلَاءِ» يَرَى - أَنَّ الْأَخْلَاقَ تَخْتَلِفُ وَتَتَفَاوَتُ ،
وَفِي الشَّرِّ خِيَارٌ ، فَمِنْهَا الْمَذْمُومُ وَالْمَمْدُوحُ ، وَالنَّافِعُ وَالضَّارُّ .

(١) قال « غنيينا من عفاف النفس أفقرنا » .

(٢) الفترة : الهدنة ، والضعف ، والانكسار .

وَالْقَاسِي وَالرَّحِيمُ ، وَمَا إِلَى ذَلِكَ مِنْ حَمِيدِ الصِّفَاتِ وَمَرْدُودِهَا .
وَهَذِهِ الْأَخْلَاقُ تَأْتِلِفُ وَتَخْتَلِفُ مَا شَاءَتْ لَهَا خَصَائِصُهَا
وَوَظُرُوفُهَا وَمُلَابَسَاتُهَا ، وَلَكِنَّ الطَّبْعَ الْفَاسِدَ الَّذِي صِيغَتْ
مِنْهُ الْجِلَّةُ الْإِنْسَانِيَّةُ وَاحِدٌ لَمْ يَتَغَيَّرْ جَوْهَرُهُ مَهْمَا تَخْتَلِفَ
فُرُوعُهُ وَمَظَاهِرُهُ أَوْ تَأْتِلِفَ فِي بَعْضِ النَّزَعَاتِ الْمُسْتَحْدَثَةِ
الطَّارِئَةِ .

الطَّبْعُ وَاحِدٌ لَا يَتَغَيَّرُ مَعْدِنُهُ أَبَدًا مَهْمَا يَتِمَّيزُ هَذَا عَنْ
ذَاكَ فِي الْأَخْلَاقِ الَّتِي ارْتَضَاهَا الْإِنْسَانِي فِي حَيَاتِهِمْ وَتَوَاضَعُوا
عَلَيْهَا وَأَلْفَوْهَا . فَهُوَ يَقُولُ :

إِنْ مَا زَتْ النَّاسَ أَخْلَاقٌ يُعَاشُ بِهَا
فَأَيُّهُمْ — عِنْدَ سُوءِ الطَّبْعِ — أَسْوَأُ

أَوْ يَقُولُ :

وَالْخَلْقُ شَمَتِي . وَلَكِنْ ضَمَّيْتُمْ خُلُقُ
لِلشَّرِّ ، لَمْ يَلْقَ بَيْنَ النَّاسِ إِفْرَازًا

أَوْ يَقُولُ :

تَفَرَّعَ النَّاسُ عَنْ أَصْلِ بِهِدْرَنْ فَالْعَالَمُونَ إِذَا مَيَّزْتَهُمْ شَرَعُ^(١)

أَوْ يَقُولُ :

سَجَايَا كُلِّهَا غَدَرٌ وَخُبْتُ تَوَارِثَهَا أَنْسٌ عَنْ أَنْسٍ

أَوْ يَقُولُ :

الْقَدْ فَعَلُوا الْخَيْرَ الْقَلِيلَ تَكَلَّفًا

وَجَاءُوا الَّذِي جَاءَهُ مِنْ شَرِّهِمْ طَبَعًا

أَوْ يَقُولُ :

وَفِي الْأَصْلِ غِشٌّ وَالْفُرُوعُ تَوَابِعٌ،

وَكَيْفَ وَفَاءُ النَّجْلِ وَالْأَبُ غَادِرٌ

أَوْ يَقُولُ :

فَلَا تَعْذِلِينَا كُلُّنَا ابْنُ لَيْثِيَّةٍ

وَهَلْ تَعْذِبُ الْأَثْمَارُ إِنْ لَوْثَ الْغَرَسُ

أَوْ يَقُولُ :

وَالْأَرْضُ لَيْسَ بِرَجْوٍ طَهَارَتِهَا

إِلَّا إِذَا زَالَ عَنْ آفَاقِهَا الْأَنْسُ

سَيَّانٍ فِي ذَلِكَ الرَّجُلِ وَالْمَرْأَةِ : فَهُوَ يَقُولُ :

جَرَى النَّاسُ مُجَرَّى وَاحِدًا فِي طِبَاعِهِمْ

فَلَمْ يُرْزَقِ التَّهْدِيبَ أُنْثَى وَلَا فَحْلٌ

أَوْ يَقُولُ :

فَأَفَّ لِعَصْرِ يَهُمُ نَهَارٍ وَحِنْدِسٍ وَجِنْسِي رِجَالٍ مِنْهُمْ وَلِئْسَاءِ

أَوْ يَقُولُ :

كُلُّنَا غَادِرٌ يَمِيلُ إِلَى الظُّلْمِ ، وَصَفْوُ الْأَيَّامِ لِلتَّعْكِيرِ
وَرِجَالُ الْأَنَامِ مِثْلُ الْغَوَانِي غَيْرَ فَرْقِ التَّائِثِ وَالْتَّذْكِيرِ

١٠ - الجنس والنوع

وَلَا يَقِفُ سُخْطُ الْمَعْرِى عِنْدَ هَذَا الْحَدِّ . بَلْ هُوَ يَرْتَقِي

إِلَى لَعْنِ الْجِنْسِ وَالنَّوْعِ . يَعْنِي جِنْسَ الْأَحْيَاءِ وَمَا يَتَفَرَّعُ

عَلَيْهِ مِنْ أَنْوَاعِ الْحَيَوَانِ وَالْحَشَرَاتِ وَالْإِنْسَانِ ، فَيَقُولُ :

أَرَى الْحَيَّ جِنْسًا ظَلَّ يَشْمَلُ عَالَمِي

بِأَنْوَاعِهِ : لَا بُورِكَ النَّوْعُ وَالْجِنْسُ

مَاذَا ؟ بَلْ إِنْ شَكَّهُ لِيَغْتَلِي حَتَّى يَرْتَقِيَ إِلَى الْعَالَمِ الْعَالِي :

كَوَاكِبَ وَسَيَّارَاتٍ ، وَمَا يُمَكِّنُ أَنْ تَحْوِيَهُ مِنْ كَائِنَاتٍ ،
فَيَسْأَلُ : هَلْ تَخْتَلِفُ الْكَوَاكِبُ وَالسَّيَّارَاتُ كَمَا تَخْتَلِفُ :

وَهَلِ الْكَوَاكِبُ مِثْلُنَا فِي دِينِنَا

لَا يَتَفَقَّنَ ، فَهَائِدٌ ، أَوْ مُسْلِمٌ

وَهَلْ يَمُتُ بَعْضُهَا إِلَى بَعْضٍ بِصِلَاتِ الْمُصَاهَرَةِ

وَالزَّوَاجِ وَمَا إِلَى ذَلِكَ ؟ وَهَلْ تُصَلَّى كَمَا تُصَلَّى ، وَتَفْجَرُ
كَمَا تَفْجَرُ :

وَتَكْذِبُ ؟ إِنَّ الْمَيْنَ فِي آلِ آدَمَ

خَلَائِقُ جَاءَتْ بِالنِّفَاقِ وَبِالْعَهْرِ

عَلَى أَنَّهُ بَعْدَ أَنْ يَلْعَنَ الْأَنْوَاعَ وَالْأَجْنَاسَ مُجْتَمِعَةً ،

يُفَرِّدُ الْجِنْسَ الْإِنْسَانِيَّ بِأَوْفَرِ قِسْطٍ مِنْ هَذِهِ اللَّعْنَاتِ
فَيَقُولُ :

فَإِنْ كَانَ فِي دُنْيَاكَ لِلشَّرِّ مَعْدِنٌ

فَإِنَّهُمُ — فِي ذَاكَ — أَزْكَى الْمَعَادِنِ

وَيَقُولُ :

شَرُّ أَشْجَارٍ — عَلِمْتُ بِهَا — شَجَرَاتٌ أَمُتَتْ نَاسًا
 حَمَلَتْ بَيْضًا وَأَغْرَبَةً وَأَتَتْ بِالْقَوْمِ أَجْنَاسًا
 كُلُّهُمْ أَخَفَتْ جَوَانِحُهُ مَارِدًا — فِي الصَّدْرِ — خَنَاسًا
 لَمْ تَسِقْ^(١) عَذْبًا وَلَا أَرْجًا بَلْ أَذِيَّاتٍ وَأَذْنَسَا

١١ — مُرَكَّبُ النِّقْصِ

وَلَا يَفَوِّتُهُ أَنْ يُنَدِّدَ بِحُقَرَاءِ النُّفُوسِ الَّذِينَ يَلْجَأُونَ
 إِلَى نَقِیْصَةِ الْكِبْرِيَاءِ ، لِيَسْتُرُوا بِهَا مَا تَأَصَّلَ فِي جَبَلَاتِهِمْ
 وَامْتَزَجَ بِفِطْرَتِهِمْ مِنْ شُعُورٍ كَامِنٍ بِالْهَوَانِ وَالنَّقْصِ ،
 فَيَقُولُ فِي لُزُومِيَّاتِهِ :

لَوْ لَمْ تَكُنْ فِي الْقَوْمِ أَصْغَرَهُمْ

مَابَانَ مِنْكَ عَلَيْهِمْ كَبَرُ

وَفِي هَذَا الْبَيْتِ — كَمَا يَرَى الْقَارِئُ — صُورَةٌ مِنْ
 أَدَقِّ الصُّوَرِ ، تَفْسِّرُ مُرَكَّبَ النِّقْصِ وَتَجْلُوهُ فِي إِيجَازٍ فَاتِنٍ

بارِع ، وَبَيَانٍ سَهْلٍ مُتَمَتِّعٍ رَائِعٍ .

عَلَى أَنَّهُ قَدْ عَرَضَ لَهُ بِالتَّفْصِيلِ فِي سِقْطِ الزُّنْدِ قَبْلَ
 أَنْ يُوجِزَهُ فِي الْأُزُومِيَّاتِ ، وَجَلَّاهُ فِي رَأْيَيْهِ الْمَعْرُوفَةِ
 وَشَرَحَ مِنْ دَقَائِقِهِ الْمُسْتَسْمِرَةِ وَخَفَايَاهُ الْغَامِضَةِ ، فَذَسَبَ
 تَوَاضُعَ الْكَامِلِينَ إِلَى مَوْفُورِ ثِقَتِهِمْ بِأَنْفُسِهِمْ عَلَى حِينِ
 يَخْشَى غَيْرُهُمْ مِنَ النَّاقِصِينَ أَنْ يَتَوَاضَعُوا فَيَجْرُوا عَلَيْهِمْ
 الْمُجْتَرُّونَ ، وَيَنْتَقِصَهُمُ الْعِيَاوُنَ ، وَرَأَى — وَيَا صَدِيقَ
 مَا رَأَى — أَنَّ مَجَادَةَ النَّفْسِ تَتَنَافَى مَعَ تَقِيصَةِ الْكِبَرِيَاءِ ،
 كَمَا يَتَنَافَى الصَّبَا مَعَ الشَّيْخُوخَةِ ، وَأَنَّ غُلُوقَ الْإِنْسَانِ فِي خَلَّةٍ
 مِنْهُمَا ، دَلِيلٌ عَلَى نَقْصِهِ فِي الْأُخْرَى ، كَمَا أَنَّ طُولَ اللَّيْلِ
 يَنْتَقِصُ مِنْ سَاعَاتِ النَّهَارِ . ثُمَّ قَابَلَ بَيْنَ أَنَاةِ الْمُتَوَاضِعِينَ
 وَرَجَاحَةِ أَحْلَامِهِمْ ، وَبَيْنَ طَيْشِ الْمُتَكَبِّرِينَ وَخِفَّةِ عُقُولِهِمْ
 وَضَرْبَ الْأَوَّلِينَ مِثْلَ الْجَمْرِ ، وَالْآخِرِينَ مِثْلَ الشَّرَرِ :
 أَوَّلُهُمَا ثَابِتٌ مُسْتَقَرٌّ ، وَالْآخِرُ طَائِشٌ لَا ثَبَاتَ لَهُ وَلَا قَرَارَ

وَفِي ذَلِكَ يَقُولُ :

عَلِمْتُمْ ، فَتَوَاضَعْتُمْ عَلَى ثِقَةٍ ،

لَمَّا تَوَاضَعَ أَقْوَامٌ عَلَى غَرَرٍ

وَالْكِبَرِ وَالْحَمْدُ ضِدَّانِ ، اتَّفَقُ مَا

مِثْلُ اتَّفَاقِ فِتَاءِ السِّنِّ وَالْكِبَرِ

يَجْنِي تَزَايُدُ هَذَا مِنْ تَنَاقُصِ ذَا

وَاللَّيْلُ إِنْ طَالَ غَالَ الْيَوْمُ بِالْقِصَرِ (١)

خَفَّ الْوَرَى وَأَقْرَبَتْكُمْ حُلُومُكُمْ

وَالْجُمُرُ تُعَدُّ فِيهِ خِفَّةُ الشَّرَرِ

١٢ - الوعظ وسامعوه

وَهُوَ يَلْعَنُ جُمْهُورَ الْوَاعِظِينَ الَّذِينَ يَتَصَدَّرُونَ لَوَعْظِ

النَّاسِ ، وَهُمْ يُضْمِرُونَ عَكْسَ مَا يُعْلِنُونَ ، فَيَقُولُ :

طَلَبَ الْخَسَائِسَ وَارْتَقَى فِي مُنْبَرٍ

يَصِفُ الْحِسَابَ لِأُمَّةٍ لِيَهْوَلَهَا

(١) في هذا البيت لفظة إلى قول ابن الرومي في وصف أصلع :

« يأخذ أعلى الوجه من رأسه أخذ نهار الصيف من ليله »

وَيَكُونُ غَيْرَ مُصَدِّقٍ بِقِيَامَةِ
أَصْحَى يُمَثِّلُ فِي النُّفُوسِ ذُهُولَهَا

أَوْ يَقُولُ:

رُؤْيَاكَ قَدْ غُرِرْتُ ، وَأَنْتَ نَذْبٌ ،

بِصَاحِبِ حِيلَةٍ يَعِظُ النِّسَاءَ

يُحَرِّمُ فِيكُمْ الصَّهْبَاءَ صُبْحًا

وَيَشْرِبُهَا عَلَى عَمْدٍ مَسَاءً

يَقُولُ : « لَقَدْ غَدَوْتُ بِلا كِسَاءِ »

وَفِي لَذَائِهَا رَهَنَ الْكِسَاءِ

إِذَا فَعَلَ الْفَتَى مَا عَنْهُ يَنْهَى ،

فَمِنْ جِهَتَيْنِ لَا جِهَةَ أَسَاءَ

وَمَتَى انْتَهَى شَيْخُنَا مِنْ إِهْدَاءِ تِلْكَ اللَّعَنَاتِ الْفَنِيَّةِ

إِلَى سَادَاتِنَا رَجَالَ الْوَعْظِ ، انْتَفَتَ إِلَى سَامِعِي مَوَاعِظِهِمْ

فَأَنْحَى عَلَيْهِمْ بِأَنَّهُمْ إِذَا لَاحَتْ لَهُمُ الْغَنَائِمُ انْدَفَعُوا إِلَيْهَا

فَاتَكِينَ ، كَمَا تَنْدَفِعُ الْأَسُودُ الضَّارِيَةُ إِلَى تَمْزِيقِ صَيْدِهَا .

فَإِنْ وَجَّهْتَهُمْ إِلَى الْخَيْرِ تَبَلَّدَتْ قُلُوبُهُمْ . وَاشْبَهُوا الْحَمِيرَ
فِي غَبَائِهَا وَتَرَدُّدِهَا وَبَلَاهَتِهَا ، فَقَالَ :

يَرْقَى عَلَى الْمِنْبِ الْعَالِي خَطِيبُهُمْ

وَإِنَّمَا يَعِظُ الْأَسَادَ وَالنُّمُرَا

هُمْ السَّبَاعُ إِذَا عَنَّتْ فَرَائِسُهَا ،

وَإِنْ دَعَوْتَ لِخَيْرٍ حَوْلُوا حِمْرًا

عَلَى أَنَّهُ — مَعَ هَذَا كُلِّهِ — يَرْضَى بِالْحَقِيقَةِ الرَّاهِنَةِ ،

وَيُوصِي بِأَنْ يَقْبَلَ النَّاسُ عَلَى عِلَلَتِهِمْ ، فَيَقُولُ :

هَذِي طَبَاعُ النَّاسِ مَعْرُوضَةٌ فَخَالِطُوا الْعَالَمَ أَوْ فَارِقُوا

نَمْ يَرْتَقِي فِي فَلْسَفَتِهِ الْعَالِيَةِ فِي تَهْوِينِ مُشْكَلَاتِ

الْحَيَاةِ ، فَيَقُولُ :

إِنْ جَدَّ عَالَمُكَ الْأَرْضِي فِي نَبَأٍ يَغْشَاهُمْ ، فَتَمَثَّلْ جِدَّهُمْ لِعِبَا

١٣ — الْكَلْبُ وَالْتُعْبَانُ

فَإِذَا قُلْتَ لَهُ : « لَيْتَ النَّاسَ كُلَّهُمْ فِي مَنَسٍ صَفَاهُ

طَبَعَكَ ، وَبُعْدِكَ عَنِ الْأَرْجَاسِ وَالْدَّيَايَا » زَوَى عَنْكَ وَجْهَهُ

غَاضِبًا . وَقَالَ : مَا أَنَا بِبِدْعٍ فِي النَّاسِ . وَمَا طَبَعِي بِمُخْتَلَفٍ
عَنْ طَبَعِكَ وَطَبَائِعِ غَيْرِكَ مِنَ الْآدَمِيِّينَ . فَإِذَا كَانَ ثَمَّةَ
فَرْقٍ بَيْنِي وَبَيْنَكُمْ ، فَهُوَ أَنَّنِي أَشَدُّكُمْ إِيغَالًا فِي النَّقْصِ
وَالظُّلْمِ وَالْإِقْبَالِ عَلَى الدُّنْيَا الْخَادِعَةِ وَالْبُعْدِ عَنِ الصَّلَاحِ . فَأَنَا
أَظْلَمُكُمْ كَمَا تَظْلِمُونَ ، وَأَخُونُكُمْ كَمَا تَخُونُونَ ، وَأُسْهَمُ فِي
الْبَغْيِ بِمِثْلِ مَا تُسْهَمُونَ :

ظَلَمْتُ ، وَكُنَّا جَانِ ظُلُومٍ وَطَبَعُكَ فِي الْخِيَانَةِ مِثْلُ طَبَعِي
وَأُفْتِنُ بِالْحَيَاةِ الْخَادِعَةِ كَمَا تُفْتِنُونَ ، وَأَعِيشُ بِالْخُدَاعِ
كَمَا تَعِيشُونَ :

أَهْوَى الْحَيَاةَ ، وَحَسَنِي مِنْ مَعَايِهَا
أَنِّي أَعِيشُ بِتَمْوِيهِ وَتَدْلِيسٍ
وَأُشَبِّهُ السُّكَبَ كَمَا تُشَبِّهُونَ ، وَأَجْرِي وَدَاءُ الدُّنْيَا كَمَا
تَجْرُونَ :

كَلَابٌ نَعَاوَتْ أَوْ تَعَاوَتْ لِجِيفَةٍ
وَأَحْسَبُنِي أَصْبَحْتُ أَلَامَهَا كَلْبًا

وَمَا أَتَمَّنِي أَنْ يَسِيرَ أَحَدٌ عَلَى غِرَارِي ، فَأَنَا شَرُّ مَنْ
وَلَدَتْ حَوَاءٌ مِنَ الْأَبْنَاءِ :

لَوْ كَانَ كُلُّ بَنِي « حَوَاءَ » يُشَبِّهُنِي

فَبَيْتُ مَا وَلَدَتْ فِي الْخَلْقِ « حَوَاءُ »

وَأَنَا أَوَّلُ مَنْ يَبْدَأُ بِذَمِّ نَفْسِهِ قَبْلَ أَنْ أَذُمَّ غَيْرِي :

بَنِي الْأَرْضِ مَهْلًا ، إِنْ ذَمَمْتُ فَعَالَكُمْ

فَإِنِّي بِنَفْسِي لَا مَحَالَةَ أَبْدَأُ

وَلَيْسَ أَدَلَّ عَلَى فُسَادِ طَبْعِنَا مِنْ أَنَّنَا إِذَا سَمِعْنَا صَادِقًا

يَنْعَتُ أَصُولَنَا بِاللُّؤْمِ ، ثَارَتْ ثَارَتُنَا :

وَنُغْضِبُنَا مِنْ قَوْلِ زَائِعٍ حَقٌّ إِنَّنَا فِي أَصُولِنَا لَوْمَاءُ

وَمَا أَشَبَّهَنِي بِالْحَيَّةِ فِي الظُّلْمِ وَالْعُدْوَانِ ، قَالَ :

« فَأَنَا ابْنُ الْعَفْرِ ، الْمُشْتَوْدَعِ فِي الْأَرْضِ ، وَأَبُو الْعُرَاتِ

الْمَرْفُوعَةِ إِلَى رَبِّ الْعَرْشِ . وَأَخُو الْجُنَايَاتِ الْمُوجِبَةِ

نَقِيضِ الْعَفْوِ .

أَظْلَمُ مِنْ بِنْتِ الْجَبَلِ (الْحَيَّةِ) أُمُّ الْعُثْمَانِ (ابْنِ الْحَيَّةِ)

أُخْتُ الصَّلِّ (وَهُوَ الْحَيِّثُ مِنَ الْحَيَّاتِ) الصَّوُولِ . أَظْلَمُ
عَلَى التَّجَرُّبَةِ وَالْوُمُ الْأَغْمَارِ .

١٤ - الطبع والعقل

فَإِذَا عَنَّ لِبَاحِثٍ أَنْ يَسْأَلَهُ : « أَلَمْ تُشَدِّ فِي جَمْعَةٍ
أَقْوَالِكَ بِالْعَقْلِ ، وَتَفْتَنَ فِي تَمْجِيدِهِ وَالتَّضْيِيقِ بِاتِّبَاعِهِ ؟ أَلَمْ
تَقُلْ فِي رِسَالَةِ الْغُفْرَانِ : « وَمَتَى جُعِلَ الْمَعْقُولُ هَادِيًا ، نَقَعَ
مِنْ الْعَلَّةِ صَادِيًا ؟ » .

أَلَمْ تَقُلْ لَنَا فِي لُزُومِيَّاتِكَ :

يُخَالِفُ الطَّبَعُ مَعْقُولٌ خُصِّصَتْ بِهِ

فَاقْبَلْ ، إِذَا مَا نَهَاكَ الْعَقْلُ أَوْ أَمَرَ

فَكَيْفَ لَا تَتَّبِعُهُ لِيَهْدِيكَ إِلَى الطَّرِيقِ الْمُسْتَقِيمِ ،
وَيُنْقِذَكَ مِنْ طَبْعِكَ الذَّمِيمِ ؟ « أَجَابْنَا فِي غَيْرِ تَرَدُّدٍ : « إِنَّ
الْعَقْلَ فِي جُمْهُورِ شَعْرَى وَنَثَرَى ، نَبْرَاسٍ يُنِيرُ طَرَائِقَ
الْحَيَاةِ الدَّاجِيَةِ ، وَيَحُلُّ الْمُعْضِلَاتِ الْفِكْرِيَّةِ الْعَوِيصَةَ ،
وَلَكِنَّهُ عَاجِزٌ أَمَامَ الطَّبْعِ الَّذِي مُزِجَتْ بِهِ مَهْجُ الْأَنَامِ .

لَا يَكَادُ يَصْطَرِخُ مَعَهُ حَتَّى يَخْرُجَ مِنَ الْمَعْرَكَةِ دَائِمًا
مَهْزُومًا :

يَتَحَارَبُ الطَّبَعُ الَّذِي مُزِجَتْ بِهِ
مُهْجُ الْأَنَامِ وَعَقْلُهُمْ فَيَفْلُهُ
وَكَمْ يَنْهَانِي عَقْلِي عَمَّا يَسُوءُ ، وَيَجْذِبُنِي إِلَيْهِ طَبْعِي
الذَّمِيمُ :

نَهَانِي عَقْلِي عَنْ أُمُورٍ كَثِيرَةٍ وَطَبْعِي إِلَيْهَا بِالْغَرِيزَةِ جَازِبِي
وَمَا يُجْذِبِي اللَّبُّ إِذَا أَرَادَ أَنْ يُنْقَى لَوْنُ الْغُرَابِ ،
أَوْ يَسْتَأْصِلَ الْغَرَائِزَ الْمُتَوَشِّجَةَ فِي قَرَارَةِ نَفْسِنَا :
وَاللَّبُّ حَاوِلٌ أَنْ يَهْذُبَ أَهْلَهُ

فَإِذَا الْبَرِيَّةُ مَا لَهَا تَهْذِيبُ
مَنْ رَامَ إِنْقَاءَ الْغُرَابِ ، لِكَيْ يَرَى

وَضَحَ الْجَنَاحِ أَصَابَهُ تَعْذِيبُ
إِنَّ الطَّبْعَ أَقْوَى مِنَ الْعَقْلِ وَأَشَدَّ مِرَاسًا . فَهُوَ لَا يَلِينُ
لِنُضْحِهِ ، وَلَا يَخْضَعُ لِسُلْطَانِهِ :

« فَطَبَعَكَ سُلْطَانُ لِعَقْلِكَ غَالِبٌ » . فَهَوَ لَا يَفْتَا يُلْغِي
كُلَّ مَا يُشِيرُ بِهِ الْعَقْلُ عَلَى أَصْحَابِهِ :

إِذَا مَا أَشَارَ الْعَقْلُ بِالرُّشْدِ جَرَّهُمْ

إِلَى الْغَى طَبَعَ ، أَخَذَهُ أَخَذَ سَاحِبُ
ذَلِكَ بَانَ الشَّرَّ غَرِيزَةً مُتَأَصِّلَةً فِي كُلِّ نَفْسٍ مُنْذُ جَدْنَا
الْأَعْلَى :

وَلِسَيِّدِ الْأَقْوَامِ عِنْدَ حِجَابِهِ طَبَعَ يُقَاتِلُهُ الْحَجَى وَيُحَارِبُ
وَالشَّرُّ فِي الْجَدِّ الْقَدِيمِ غَرِيزَةً فِي كُلِّ نَفْسٍ مِنْهُ عِرْقٌ ضَارِبُ
أَوْ كَمَا يَقُولُ :

وَالطَّبَعُ يَخْفِرُ ذِمَّةً مِنْ نَاسِكَ

وَالْعَقْلُ يَكْرَهُ جَاهِدًا إِخْفَارَهَا

وَمَا دَامَ الْفَوْزُ مَكْتُوبًا لِلْقَوَى عَلَى الضَّعِيفِ فِي هَذِهِ
الْحَيَاةِ ، فَإِنَّ الْغَلْبَةَ مَكْفُولَةٌ دَائِمًا لِلطَّبَعِ عَلَى الْعَقْلِ . وَرُبَّمَا
اتَّخَذَهُ الطَّبَعُ خَادِمًا لِّلَّ لَهُ مَا يَسْتَعِصِي عَلَيْهِ ارْتِيَادُهُ
مِنْ أَفَانِ الشُّرُورِ ، وَسَخَّرَ كُلَّ مَا يَمْلِكُ الْعَقْلُ مِنْ عَتَاكِ

وَقُوَّةٍ ، لِيَمَهِّدَ لَهُ مَا صَعُبَ مِنْ طَرَائِقِ الْغَيِّ وَالضَّلَالِ ،
وَحِينَئِذٍ يُصْبِحُ الْعَقْلُ الرَّاجِحُ نَكْبَةً رَاجِحَةً ، بِاللُّغَةِ
الْأَثَرِ مُحَقَّقَةَ الضَّرَرِ ، وَيُصْبِحُ أَقْلُ الْأَحْيَاءِ حَظًّا مِنْهُ أَقْلَهُمْ
قُدْرَةً عَلَى الْأَذْيَةِ وَالضَّرَرِ : « إِنَّ اللَّهَ — وَلَهُ عُلُوُّ الْمَكَانِ —
جَعَلَ الشَّرَّ غَرِيزَةً فِي الْحَيَوَانِ . فَأَبْعَدَهُمْ مِنَ الشَّرِّ
أَقْلَهُمْ حَظًّا فِي الْمَقُولِ » .

١٥ — الطبع والعادة

فَإِذَا عَنَّ لَنَا أَنْ نَسْأَلَ شَيْخَ الْمَعْرَِّةِ عَنْ رَأْيِهِ فِي
الْعَادَاتِ ، وَأَيْنَ هِيَ مِنَ الطَّبَائِعِ ، قَالَ :
الطَّبْعُ شَيْءٌ قَدِيمٌ لَا يُحْسُبُ بِهِ عَادَةُ الْمَرْءِ تُدْعَى طَبْعَهُ الثَّانِي
وقال :

هِيَ الْعَادَاتُ يَرَى الشَّيْخُ مِنْهَا
عَلَى شَيْمٍ يُعَوِّدُهَا الصَّبِيُّ
فَإِنْ سَأَلْنَاهُ : « وَهَلْ تَتَبَدَّلُ الْعَادَاتُ ، أَيُّهَا الشَّيْخُ
الْجَلِيلُ ؟ أَوْ هِيَ ثَابِتَةٌ كَالطَّبَائِعِ الْإِنْسَانِيَّةِ » ؟ قَالَ :

« أَمَّا فِي الْمَعْقُولِ فَلَا ، وَأَمَّا فِي الْقُدْرَةِ فَبَلَى : الْعَادَاتُ

— بِإِذْنِ اللَّهِ — مُتَغَيِّرَاتٌ » .

و « الْمَعْرَى » الَّذِي يَدِينُ بِالْقَضَاءِ وَالْقَدَرِ ، فَيَقُولُ :

« وَالْعَقْلُ زَيْنٌ ، وَلَكِنْ فَوْقَهُ قَدَرٌ »

هُوَ الَّذِي يَقُولُ :

قَدْ بَدَّلَ الْعَالَمُ عَادَاتِهِمْ بَلْ قَدَرٌ — مِنْ فَوْقِهِمْ بَدَلًا

١٦ — الْجُودُ وَالْبُخْلُ

وَلِلمَعْرَى فِي تَفْصِيلِ الطَّبَائِعِ الْإِنْسَانِيَّةِ فُنُونٌ كَثِيرَةٌ ،

تَجْتَزِي مِنْهَا بِقَوْلِهِ فِي تَحْلِيلِ طَبِيعَتَيْ الْبُخْلِ وَالْكَرَمِ :

يَسْتَعْنِي الْمَرْءُ بَعْدَ الْعَيْلَةِ (الْفَقْرِ) ، فَتَكُونُ لَهُ حَالَانِ :

إِنْ كَانَ بَخِيلًا اشْتَدَّ بُخْلُهُ ، وَقَالَ : « أَتَقِي صَوْلَةَ الْأَعْدَامِ » .

وإِنْ كَانَ كَرِيمًا زَادَ كَرَمُهُ ، وَقَالَ : « جُدْتُ وَأَنَا

فَقِيرٌ ، فَكَيْفَ وَأَنَا صَاحِبُ مَالٍ » .

عَلَى أَنَّهُ قَدْ يَقْسِمُ الطَّبَائِعُ إِلَى قِسْمَيْنِ : طَبَائِعَ أَصِمِيلَةٍ

وَأُخَرَ مُسْتَحْدَثَةٍ ، فَيَقُولُ :

طَبَعُ جُبِلَتْ عَلَيْهِ لَيْسَ بِزَائِلٍ
— طُولُ الْحَيَاةِ — وَآخِرُ مُتَعَلِّمٍ

١٧ — الطَّبَعُ الْفَنِّيُّ

وَهُنَاكَ الطَّبَعُ الْفَنِّيُّ ، أَوْ : الْغَرِيزَةُ الْفَنِّيَّةُ ، وَهُمَا شَيْءٌ
آخَرُ غَيْرُ الطَّبَعِ النَّفْسِيِّ الَّذِي عَرَضْنَا لَهُ فِي هَذِهِ الْوَجَاةِ ،
وَهُوَ مَا يُشِيرُ إِلَيْهِ شَيْخُنَا بِقَوْلِهِ :
وَالطَّبَعُ ^(١) يَكْسِرُ يَلْتَمِ ، أَوْ يَقُومُ

— بِأَهْوَنِ السَّعْيِ — تَحْرِيكًا وَتَسْكِينًا
وَقَدْ أَشَارَ « الْمَعَرِّيُّ » إِلَى الْغَرِيزَةِ الْفَنِّيَّةِ إِشَارَةً
بَارِعَةً فِي « رِسَالَةِ الْغُفْرَانِ » ، فَقَالَ مُعَقِّبًا عَلَى قِصَّةِ « بَشَامَةِ
ابْنِ الْغَدِيرِ » خَالِ « زُهَيْرِ بْنِ أَبِي سُلَيْمٍ » ^(٢) .

(١) يعنى الطبع الفنى

(٢) بعث « على بن منصور الحلبي » المعروف بابن القارح ، برسالته إلى
أبي العلاء ، فأجابه عنها برسالة الغفران ، وقد أفضى ابن القارح إلى شيخ المعرة —
فيما أفضى إليه من شكايات — بقصة ابنة أخته ، وراح يبيته حزنه وألمه من
عقوقها وجحودها ، لأنها سرقت من ماله — فيما يقول — ثلاثة وثمانين ديناراً ،
فلما توعدا بابلأغ السلطان ، ردّت إليه بعضها ، ثم نعى إليه أنها نقت منه —

وَرُبَّمَا كَانَ فِي نِسَاءِ « حَلَبَ » — حَرَسَهَا اللَّهُ — شَوَاعِرُ ،
فَلَا يَأْمَنُ أَنْ تَكُونَ هَذِهِ مِنْهُنَّ ، فَطَالَمَا كُنَّ أَجُودَ غَرَائِزَ
مِنْ رِجَالِهِنَّ .

وَحَدَّثَ رَجُلٌ ضَرِيرٌ مِنْ أَهْلِ « آمِدَ » يَحْفَظُ الْقُرْآنَ ،
وَيَأْنَسُ بِأَشْيَاءَ مِنَ الْعِلْمِ : أَنَّهُ كَانَ — وَهُوَ شَابٌ —
لَهُ امْرَأَةٌ مُقِيمَةٌ ^(١) : تُزَيِّنُ النِّسَاءَ فِي الْأَعْرَاسِ ، وَكَانَ

= تهديده ، ولم تغتفر له وعيده ، فأقسمت مغضبة محنقة : إنها لو علمت أن
الأمر يجري هكذا لما تورعت عن الفتك به .

فأجابه شيخ المعرة يحذره من التعرض لسخطها ، ويشير — في لباقة علائقية
بارعة — إلى ما عرف عن الشيخ « ابن القارح » من سلاطة اللسان ، ورحابة
باعه في الهجاء .

وراح يهون عليه الأمر ، ويحذره من التعرض لأغضابها ملوحاً له بما قد يتركه
بيانها اللاذع من أثر في تشويه سمعته ، يصغر — بالقياس عليه — كل ما امتدت
يدها إليه من دنائيره ، قال :

ويجوز أن يكون قد وشج إلى هذه المرأة شيء من أدب الخوولة ، فليثق
معرة بيانها أكثر من اتقائه خلصة بناتها ، فهو يعلم أن الشعر ورثه زهير بن
أبي سلمى من خاله « بشامة بن الغدير » ولم يكن في مزينة (قبيلة زهير) شعر
يذكر وحضره زهير عند الوفاة ، فأراد أن يعطيه شيئاً من ماله ، فقال « بشامة » :
« أما يكفيك أنى ورتك غرائب القصيد ؟ »

يُنْجَمُ^(١) عَلَى الطَّرِيقِ ، وَكَانَتْ لَهُ قُرْعَةٌ^(٢) فِيهَا أَشْعَارٌ كَتَحْوِ
مَا يَكُونُ فِي الْقُرْعِ ، وَكَانَ يَعْتَمِدُ حِفْظَ تِلْكَ الْأَشْعَارِ وَيَذَرُهَا
فِي يَدَيْهِ ، وَلَا غَرِيزَةَ لَهُ فِي مَعْرِفَةِ الْأَوْزَانِ ، فَيَكْسِرُ الْبَيْتَ .
فَتَقُولُ لَهُ امْرَأَتُهُ الْمَاشِطَةُ : « وَيَلِي ، مَا هَذَا جَيِّدٌ ؟ »
فَيَلَاجُهَا ، وَيَزْعُمُ أَنَّهَا مُخْطِئَةٌ . فَأِذَا أَصْبَحَ مَضَى فَسَأَلَ مَنْ
يَعْرِفُ ذَلِكَ ، فَأَخْبَرَهُ بِأَنَّ الصَّوَابَ مَعَهُ ، وَعَرَفَهُ كَيْفَ
يَجِبُ أَنْ يَكُونَ .

فَإِذَا لَقِنَهُ^(٣) ، عَادَ فِي اللَّيْلَةِ الثَّانِيَةِ ، فَذَكَرَهُ — وَقَدْ
أُصْلِحَ — فَتَقُولُ الْمَاشِطَةُ : « هَذَا السَّاعَةَ جَيِّدٌ » .
ثُمَّ شَفَعَ « أَبُو الْعَلَاءِ » هَذَا الدَّلِيلَ ، بِقِصَّةٍ أُخْرَى فَقَالَ :

(١) المنجم : الذي يرعى النجوم بحسب مواقيتها وسيرها ، ليعلم منها أحوال
العالم ، وقد أسلفنا رأى المعري في المنجمين في موضعه من رسالة الغفران ،
وبحسبنا في هذا المقام أن نخيل القارئ إلى لاميته في الزوميات التي يقول فيها :
لو كان لي أمر يطاوع لم يشن ظهر الطريق يد الحياة منجم

(٢) القرعة : السهم والنصيب ، والقاء القرعة حيلة يتعين بها سهم الإنسان
ونصيبه .

(٣) فهمه سريعاً .

وَكَانَ لِي كَرِيٌّ^(١) ، مِنْ أَهْلِ الْبَادِيَةِ ، يُعْرِفُ بَعْلَوَانَ
وَلَهُ امْرَأَةٌ تَزْعُمُ أَنَّهَا مِنْ « طَيِّ » ، وَكَانَ لَا يَعْرِفُ مَوْزُونَ
الْأَيَّاتِ مِنْ غَيْرِهِ ، وَكَانَتِ الْمَرْأَةُ تُحْسِنُ بِذَلِكَ .
وَكَانَتْ تَتَأَسَّفُ عَلَى طِفْلِ مَاتَ لَهَا ، يُقَالُ لَهُ :

« رَجَبٌ » وَكَانَتْ تُنْشِدُ هَذَا الْبَيْتَ :

إِذَا كُنْتُ — مِنْ جَرَّاحِيْبِكَ — مُوجِعًا

فَلَا بُدَّ — يَوْمًا — مِنْ فِرَاقِ حَبِيبِ

فَقَالَتْ يَوْمًا : إِذَا كُنْتُ — مِنْ جَرَّارُجِينِ — مُوجِعًا

فَعَلِمْتُ أَنَّ الْوَزْنَ مُخْتَلٌ فَقَالَتْ :

إِذَا كُنْتُ — مِنْ جَرَّارُجِينِ « مُوجِعًا

فَجَرَّكَتِ التَّنَوِينِ ، وَأَنْكَرْتَ تَحْرِيكَهُ بِالطَّبْعِ ،

فَقَالَتْ :

إِذَا كُنْتُ — مِنْ جَرَّارُجِينِ — مُوجِعًا

فَأَضَافَتْهُ إِلَى الْكَافِ ، فَاسْتَقَامَ الْوَزْنُ وَاللَّفْظُ .

(١) الكرى : المسكاري ، والمكترى .

وَالْمَعْرَى فِي رَسَائِلِهِ ، وَفِي فُصُولِهِ إِشَارَاتٌ طَرِيفَةٌ
تَمَازُلُ فِيهَا مِنْ عَجَائِبِ الْغَرَائِزِ ^(١) مَا يُدْهِشُ الْبَاحِثِينَ .
وَمِنْ لَفَاتِهِ الصَّادِقَةِ فِي هَذَا الْبَابِ قَوْلُهُ يَصِفُ مَا وَهَبَهُ
الدَّلِيلُ مِنْ غَرِيزَةٍ صَادِقَةٍ ، وَفِرَاسَةٍ حَادِقَةٍ :
كَمْ أَمْرَةٌ ^(٢) عَرَفَهَا الدَّلِيلُ ، وَعِنْدَ الرُّكْبَانِ أَنَّهَا
حَجَرٌ ، لَمْ يَنْصُبْهَا بَشَرٌ ، وَكَفَى بِاللَّهِ هَادِيَا .

١٨ — الطَّبْعُ الْمُكْتَسَبُ

وَيَرَى شَاعِرُنَا أَنَّ الطَّبْعَ الْإِنْسَانِيَّ الْمُكْتَسَبَ ، لَيْسَ
— عَلَى أَىِّ حَالٍ — فِي قُوَّةِ الطَّبْعِ الْأَصِيلِ الْفَيَاضِ بِالشَّرِّ ،
وَلَا فِي مَتَانَتِهِ وَثْبَاتِهِ .

(١) وقد أشار أبو العلاء إلى الغريزة الفنية في رسالته إلى النكتي البصري حين عرض لبعض عيوب الشعر ، فقال : « وإنما تضعف بعض الغرائز في غير المؤسس فتجىء بالتأسييس ، أو فيما بنى عليه ، فتجىء بما هو خال منه » . إلى أن قال :

« وقد شاهدنا بعض من يقول الشعر بالعروض ، ربعا ركب وزن قصيدة المرقش ، وعنده أن غرائز الناس اليوم لا تنفر من مثل ذلك الخ » .
(٢) الأمرة : العلم ينصب من حجارة .

وَالشَّرُّ فِي طَبَعِ الْأَنَامِ ، فَإِنْ يُبْنَ
 شَيْئًا سِوَاهُ ، فَلَيْسَ خِيَمَ نِجَارٍ
 وَالْخِيَمُ — كَمَا يَعْلَمُ الْقَارِئُ — الطَّبَعُ ، وَالنَّجَارُ
 الْأَصْلُ ، فَهُوَ يُقَرَّرُ : أَنَّ مَا يَبْدُو مِنْ أَخْلَاقِنَا الْمُسْتَحْدَثَةِ
 الَّتِي تُخَالِفُ طَبَائِعَنَا ، لَيْسَ طَبَعًا أَصِيلًا فِي نُفُوسِنَا .

١٩ — الدَّوَاءُ الشَّافِي

فَإِذَا سَأَلْنَا شَيْخَ الْمَعْرَِّةِ : فَهَلْ مِنْ دَوَاءٍ يَشْفِي سَائِرَ
 هَذِهِ الْأَرْضِ مِنْ طِبَائِعِهِمُ الْفَاسِدَةِ وَأَهْوَاؤِهِمُ الْجَائِحَةِ . قَالَ :
 إِذَا كَانَ الْهَوَى فِي النَّفْسِ طَبَعًا
 فَلَيْسَ بَغَيْرِ مِثَّتِهَا سُلُوكُ

رَحِمَ اللَّهُ أَسْتَاذَهُ وَأُسْتَاذَنَا الْمُتَتَّبِي الْقَائِلَ :

كَفَى بِكَ دَاءٌ أَنْ تَرَى الْمَوْتَ شَافِيَا
 وَحَسَبُ الْمَنَايَا أَنْ يَكُنَّ أَمَانِيَا

٢٠ — الكَنْزُ الْعَلَائِي

إِنَّ بَعْضَ مَا أَبْدَعَهُ شَيْخُنَا الْجَلِيلُ وَشَاعِرُنَا الْفَيْلَسُوفُ

فِي تَصْوِيرِ الْقُدْرَةِ الْإِلَهِيَّةِ الْإِنْسَانِيَّةِ مِنَ الْوَاحِ بَيَانِيَّةٍ
مُشْرِقَةٍ بَارُوعِ آيَاتِ الْفَنِّ الْعَالِي وَالْإِبْدَاعِ الْأَصِيلِ ، وَإِنَّ
فِي أَكْثَرِ مَا أُوْرَدَ ذَنَاهُ ، لِحَافِزاً لِلتَّأَمُّلِ وَالْإِفَاضَةِ وَالشَّرْحِ ،
حَتَّى لَتَضِيقُ بِهِ الْأَسْفَارُ الضَّخْمَةُ وَالْمُحَاضَرَاتُ الْمُسْتَفِيضَةُ
عَلَى أَنَّهَا اجْتَزَأْنَا مِنْ ذَلِكَ الْمَعِينِ الْفَيَّاضِ بِمَا يَجْتَزِي
بِهِ الظَّامِي مِنَ النَّهْرِ الْجَارِي : بِمَجْرَعَةٍ تَشْفِي الصَّدَى ،
وَتُرَوِّى الظَّمَاءَ .

وَنَحْنُ أَمَامَ الْكَتَنِ الْعَلَائِيِّ أَشْبَهُ بِرُؤَادِ الْكُنُوزِ
الَّذِينَ تُمَثِّلُهُمُ الْأَسَاطِيرُ يَقْفُونَ أَمَامَ نَفَائِسِهَا حَارِّينَ
مَا خُودِينَ ، لَا يَعْرِفُونَ مَاذَا يَأْخُذُونَ مِنْهَا وَمَاذَا يَتْرُكُونَ .

٢١ - فِي الْعَالَمِ الْآخِرِ

وَلَنَا - إِلَى هَذَا الْكَتَنِ الْأَدَبِيِّ الْحَافِلِ عَوْدَةٌ قَرِيبَةٌ
فِي رِسَالَةِ الْغُفْرَانِ ^(١) لِنَرَى كَيْفَ تَمَثَّلَ شَيْخُنَا الْجَلِيلُ
طِبَائِعَ الْإِنْسَانِيَّةِ فِي الدَّارِ الْآخِرَةِ ، بَعْدَ أَنْ بَعَثَهُمُ الْقُدْرَةُ

(١) وقد عرضنا لذلك في الطبعة الرابعة التي أودعناها النُّصصَ السَّامِلَ لِرِسَالَةِ
الْغُفْرَانِ ، وَهِيَ قَرِيبَةُ الظُّهُورِ إِنْ شَاءَ اللَّهُ .

الْإِلَهِيَّةُ ، وَكَيْفَ صَوَّرَهَا خَيَالُهُ الْوَثَّابُ فِي قِصَّتِهِ الْخَالِدَةِ :
 « رِسَالَةُ الْغُفْرَانِ » وَنَعْرِفُ : هَلْ تَبَدَّلَ النَّاسُ فِي الْعَالَمِ
 الْآخِرِ ، وَهَلْ غَيَّرَتِ الْجَنَّةُ وَالنَّارُ مِنْ طِبَائِعِ سَاكِنِيهَا ،
 بَعْدَ أَنْ تَحْوَلَ كُلُّ شَيْءٍ مِنَ الضِّدِّ إِلَى الضِّدِّ ؟ .
 أَمْ تَغَيَّرَتِ الْأَشْكَالُ وَالصُّوَرُ وَالْهَيْئَاتُ . وَلَمْ تَتَغَيَّرِ
 الطَّبَائِعُ وَالسَّجَايَا وَالْعَادَاتُ ؟

الفصل الثاني الطبع الحيواني

١ - الضعيف والقوى

فَإِذَا انْتَقَلْنَا - مَعَ شَيْخِنَا « أَبِي الْعَلَاءِ » - مِنَ الطَّبْعِ
الْإِنْسَانِيِّ ، إِلَى الطَّبْعِ الْحَيَوَانِيِّ ، رَاعَيْنَا مِنْهُ أَنَّهُ لَا يَكَادُ
يَحْمَدُ لِلْحَيَوَانِ صِفَةً وَاحِدَةً إِلَّا أَنْحَى بِالذَّمِّ عَلَى غَيْرِهَا .
فَهُوَ فِي جُمُورِ مَنْظُومِهِ وَمَنْشُورِهِ ، لَا يَفْتَأُ يَنْعَتُهُ بِالْجَوْرِ
وَالْإِفْسَادِ ، وَيَصِفُهُ بِالْبَغْيِ وَالْإِسْتِبْدَادِ . وَيُعْلِنُ سُخْطَهُ
وَأَسْتِنْكَارَهُ لِمَا يَشْهَدُهُ وَيَرَاهُ ، مِنْ فُنُونِ بَغْيِهِ وَأَذَاهُ .
وَعِنْدَهُ أَنَّ الْحَيَوَانَ كَالْإِنْسَانِ - فِي كُلِّ صَفْعٍ وَمَضَرٍ ،
وَفِي أَيِّ عَهْدٍ وَعَصْرِ ، ظَالِمٌ مُعْتَدٍ أَثِيمٌ ، يَفْتِكُ قُوَّتَهُ
بِضَعِيفِهِ ، وَيَسْتَبِدُّ قَادِرُهُ بِعَاجِزِهِ ، لَا فَرْقَ فِي ذَلِكَ بَيْنَ
سَبَاعِ الطَّيْرِ وَبُعَاثِهَا ، وَاسِدِ الْفَلَاةِ وَمَهَاتِهَا ، وَهُوَ يَرَى
مَا يَرَاهُ أَسْتَاذُهُ الْمُتَنَبِّي : أَنَّ الْبَغْيَ أَصِيلٌ فِي كُلِّ نَفْسٍ

قَادِرَةٌ ، بَرَّةٌ كَانَتْ أَوْ فَاجِرَةٌ :

وَالظُّلْمُ مِنْ شَيْمِ النَّفُوسِ ، فَإِنْ تَجِدْ

ذَا عَفْوَ ، فَلَعَلَّةٌ لَا يَظْلِمُ^(١)

٢ — غريزة الظلم

وَالْحَمَامَةُ — عَلَى ضَعْفِهَا — ظَالِمَةٌ بَاغِيَةٌ :

وَالشَّرُّ — فِي حَيَوَانِ الْأَرْضِ مُفْتَرَقٌ

وَالْإِنْسُ كَالْوَحْشِ : مِنْ ضَارٍ وَمُبْتَلٍ^(٢)

وَهِيَ — فِيمَا يَرَى شَاعِرُنَا — لَا تَتَوَرَّعُ لَحَظَّةً وَاحِدَةً

عَنِ الْفِتْكِ وَالْأَذَى وَالْعُدْوَانِ ، مَتَى هِيَ لَهَا — مِنْ أَسْبَابِ

الشَّرِّ وَطَرَانِكِهِ — مَا يُحَقِّقُ آرَائَهَا ، وَيُتَيْسِرُ لَهَا إِرْضَاءُ نَزَوَاتِهَا

الْبَاغِيَةِ ، وَيَكْفُلُ إِدْوَاءَ نَزَغَاتِهَا الطَّائِغِيَةِ . فَهِيَ تَظْلِمُ

(١) من قصيدة مشهورة للمتنبي .

(٢) الضار : المفترس من أكلة اللحم ، والمبتل : آكل البقل .

— ما وَسِعَتْهَا طاقَتُهَا الضَّعِيفَةُ — كما يَظْلِمُ الْأَسَدُ جَهْدَ
طَبِيعَتِهِ الْبَاطِشَةَ الْغَلَابَةَ ، فَهُوَ يَقُولُ :

كَادَتْ تَسَاوِي نَفُوسُ النَّاسِ كُلِّهِمْ

فِي الشَّرِّ مَا بَيْنَ مَنبُوزٍ وَنَبَّازٍ^(١)

ظَلَمُ الْحَمَامَةِ — فِي الدُّنْيَا — وَإِنْ حُسِبَتْ

فِي الصَّالِحَاتِ — كَظَلَمِ الصَّقْرُ وَالْبَازِي

وَالْخَشْفُ — وَهُوَ وَلَدُ الظَّيْمَةِ أَوَّلَ مَا يُوَلَدُ — يَمِلُ ،

عَلَى عَجْزِهِ وَضَعْفِهِ ، نَفْسًا شَرِيرَةً بَاطِلَةً ، لَا تَكَادُ تَخْتَلِفُ

عَنْ نَفْسِ الْأَسَدِ طَبِيعَةً وَعُنْصُرًا ، وَمَعْدِنًا وَجَوْهَرًا ،

وَكِلَاهُمَا جَدِيرٌ أَنْ يُتَّقَى شَرُّهُ ، وَيُحْذَرُ ضَرُّهُ .

وَإِلَيْكَ النَّصَّ :

« خَفَ مِنْ خَشْفٍ بَغَمٍ^(٢) ، كَمَا تَخَافُ مِنْ هِزْبٍ »

(١) نَبَزَهُ : لَمَزَهُ ، وَنَبَزَهُ بِكَذَا : لَقَبَهُ بِهِ ، وَهُوَ شَائِعٌ فِي الْأَلْقَابِ الْمُسْتَهْجَنَةِ

(٢) بَغَمَتِ الظَّيْمَةُ : صَاحَتْ إِلَى وَلَدِهَا بِأَرْخَمَ مَا يَكُونُ مِنْ صَوْتِهَا ، وَبَغَمَ
فُلَانٌ صَاحِبَهُ : لَمْ يَفْصَحْ لَهُ عَنْ مَعْنَى مَا يُحَدِّثُهُ بِهِ .

(أَسَدٍ) ضَعَمَ (عَضَّ) ، فَكُلُّ الْأَنْفُسِ مَوَاطِنُ الشُّرُورِ «

وَعِنْدَهُ أَنَّ الْكُلَّ فِي الْغَفْلَةِ سِوَاهِ :

وَأُمُّ شَبْلَيْنِ فِي غِيَلٍ ، وَمَأْسَدَةٌ

كَأُمِّ خَشْفَيْنِ فِي شَتِّ وَطْبَاقٍ (١)

عَلَى أَنَّهُ يُوصِيكَ أَنْ تَصْنَعَ الْمَعْرُوفَ دَائِمًا ، فِي كُلِّ

مَنْ تُمْكِّنُكَ الْفُرْصَةُ مِنْ إِسْدَاءِ الْجَمِيلِ إِلَيْهِ ، سِوَاهِ فِي

ذَلِكَ الْإِنْسَانُ وَالْحَيَوَانُ ، فَهُوَ يَقُولُ :

تَوَخَّ الْأَجَرَ فِي وَحْشٍ وَإِنْسٍ

فَفِي كُلِّ النَّفُوسِ مَرَامُ أَجْرٍ

وَكَاثِمًا يُشِيرُ بِهَذَا الْبَيْتِ - فِي لِبَاقَةٍ - إِلَى مَأْثُورٍ

الْحَدِيثِ :

مَا مِنْ مُسْلِمٍ يَغْرِسُ غَرْسًا ، أَوْ يَزْرَعُ زَرْعًا ، فَيَأْكُلُ

مِنْهُ طَيْرٌ ، أَوْ إِنْسَانٌ ، أَوْ بَهِيمَةٌ ، إِلَّا كَانَ لَهُ بِهِ صَدَقَةٌ .

(١) يعنى أن اللبابة في عريتها كالظبية التي ترعى من النبات الشث وهو نبت طيب

الرائحة يدبغ به ، والطباق وهو شجر في جبال مكة يتداوى به شديد الاسخان .

٣ — طبيعة الخوف

وَلَا يَفُوتُ شَاعِرَنَا أَنْ يُذَبِّهَ — فِيمَا نَبَّهَ إِلَيْهِ مِنْ
طَبَائِعِ الْحَيَوَانِ وَغَرَائِزِهِ — إِلَى مَا جُبِلَ عَلَيْهِ مِنْ طَبِيعَةِ
الْخَوْفِ مِنَ الْقَوَى . فَهُوَ إِذَا قَرَّرَ لَنَا فِي بَعْضِ فُصُولِهِ
مَا تَأَصَّلَ فِي طَبْعِ الْإِنْسَانِ مِنَ الظُّلْمِ فَقَالَ : « طَبِعَ
النَّاسُ عَلَى الْحُلْمِ ، وَالْإِنْسَانُ عَلَى الظُّلْمِ » . لَمْ يَفْتَهُ فِي
فَصْلِ آخِرٍ أَنْ يُصَوِّرَ لَنَا مَا طَبَعَ عَلَيْهِ الْحَيَوَانُ مِنْ غَرِيزَةِ
الْخَوْفِ مِنَ الْفَاتِكِ الْبَاطِشِ ، فَيَقُولُ :

الْمَخْلُوقُ كَمَا خُلِقَ !

طَبَعَ الْهَادِلُ ، (الْحَمَامُ) ،

عَلَى الْخَوْفِ مِنَ الْأَجَادِلِ ، (الصُّقُورِ) .

فَالْحَمَامُ وَإِنْ سَكَنَ الْأَقْفَاصَ ،

وَعَلِمَ أَنْ لَا مَقَاصَ ، (عَرَفَنَ أَنْ لَا خَلَاصَ)

يُحْسِنُ النَّقْرَ ،

وَيَنْخَشِنُ مَخَالِبَ الصَّقْرِ ،

أَوْ يَقُولُ :

أَرَى حَيَوَانَ الْأَرْضِ يَرْهَبُ حَتْفَهُ

وَيُفْزِعُهُ رَعْدُهُ ، وَيُطْمِعُهُ بَرْقُ

٤ — براعة النحلة

وَلَهُ إِلَى ذَلِكَ ، فُنُونٌ مِنَ الْمُقَابَلَاتِ ، بَيْنَ الْإِنْسَانِ
وَالْحَيَوَانِ ، لَا يَتَسَعُّ هَذَا الْمَقَامُ لِتَفْصِيلِهَا ، فَلَمُنَقَّصَرٌ عَلَى
بَعْضِ مَا أَبْدَعَهُ فِي مُقَابَلَةِ بَيْنِ الْإِنْسَانِ وَالنَّحْلَةِ ، قَالَ :
« وَالْجَارِسَةُ (النَّحْلَةُ) تَبْنِي — مِنَ الشَّمْعِ — أَحْسَنَ
مَسْكَنِ ، وَتُدْعُهُ طَيْبَ الْأَرْضِ (العسل) .

وَزَمَانُهَا تَسْبِيحٌ لِمُلْكِهِمُ الْحِكْمَةِ مَنْ أَرَادَ .
فَمَا فَضِيلَةُ الصَّنْعِ (الْحَاذِقِ الْكَفِّ بِالصَّنْعَةِ) .
إِذَا اتَّخَذَ قَمِيصًا (دِرْعًا) لِلْحَرْبِ .

كَبَارِدِ الْحَبِّبِ (طَرَائِقِ الْمَاءِ) .

أَوْ بُرْدِ الْحَبَابِ؟ (جِلْدِ الْحَيَّةِ) . »

وَمَا أَرَوَعَ قَوْلَهُ فِي تَشْبِيهِ الْبَارِعِ الْمَوْهُوبِ بِالنَّحْلَةِ

فَهُوَ بِمَا أُوتِيَهُ مِنْ مَزَايَا نَادِرَةٍ ، وَقُدْرَةِ بَاهِرَةٍ ، يَرُدُّ
الْوَحْشِيَّ مِنَ الْكَلَامِ أَيْسَاءً ، كَمَا يَرُدُّ النَّحْلُ مَا يَجْنِيهِ
مِنْ نَوْرِ الْأَزْهَارِ — وَهِيَ مُرَّةُ الْمَذَاقِ — عَسَلًا سَائِغًا
لِلشَّارِبِينَ ، فَهُوَ يَقُولُ :

رَدَّتْ لَطَافَتُهُ وَحِدَّةَ ذَهْنِهِ
وَحَشَّ اللُّغَاتِ أَوَانِسًا بِخَطَابِهِ
وَالنَّحْلُ يَجْنِي الْمُرَّ مِنْ نَوْرِ الرُّبِيِّ
فَيَعُودُ شَهِدًا فِي طَرِيقِ رُضَائِهِ
ه — رِزْقُ الْحَيَوَانِ

وَهُوَ — عَلَى هَذَا — دَائِمُ الْعِنَايَةِ مَوْصُولُ التَّفَكِيرِ فِي
الْحَيَوَانِ وَالْإِنْسَانِ جَمِيعًا ، وَلَهُ فِي ذَلِكَ فُنُونٌ مِنْ رَوَائِعِ
الصُّوَرِ ، تَضِيقُ بِتَفْصِيلِهَا مَطَوَّلَاتُ الْكِتَابِ وَالْأَسْفَارِ ،
بَلْهَ مَوْجَزَاتِ الْفُصُولِ وَالْأَسْطَارِ .

وَيُحْسِبُنَا فِي هَذِهِ الْوَجَازَةِ أَنْ نُشِيرَ إِلَى بَعْضِ الْوَاحِدِ
الْفَنِيِّ الرَّائِعَةِ الَّتِي تُصَوِّرُ نَاحِيَةً مِنْ نَوَاحِي تَفَكُّيرِهِ
الْعَمِيقِ ، فِي تَمَثُّلِ الْعِنَايَةِ الْإِلَهِيَّةِ بِكُلِّ حَيٍّ مِنَ الْأَحْيَاءِ

وَكَيْفَ كَفَلَتِ الرِّزْقَ لِجَمِيعِ الْمَخْلُوقَاتِ .

فَهُوَ يَعْرِضُ — فِي هَذَا اللُّوحِ الْفَاتِنِ — صُورَةً
رَائِعَةً التَّفْصِيلِ ، تُمَثِّلُ بَعْضَ الْمُصَادَفَاتِ الَّتِي تَعِدُّهَا
الْأَقْدَارُ ، لِتَهْيِئَةِ الرِّزْقِ لِمَنْ قَسِمَ لَهُمْ عَلَى غَيْرِ انْتِظَارٍ .
فَهَذَا رَجُلٌ يَعْتَزُّمُ السَّفَرَ ، فَيَعِدُّ لِلرَّحِيلِ عُدَّتَهُ ،
وَيَدْفَعُهُ الشَّرُّهُ إِلَى التَّائِقِ فِي اخْتِيَارِ طَيِّبِ الزَّادِ ، وَالِافْتِنَانِ
فِي تَهْيِئَةِ لَذِيذِ الطَّعَامِ . فَإِذَا تَمَّ لَهُ مُرَادُهُ ، وَأَعِدَّ لِلرَّحْلَةِ
زَادَهُ ، وَضَعَ الْخُبْزَ فِي سُفْرَةٍ مِنَ الْخُوصِ . إِلَى جَانِبِ جَدْيٍ
سَمِينٍ طَرَى اللَّحْمَ ، لَذِيذِ الطَّعْمِ ، يَكَادُ يَتَفَطَّرُ إِهَابَهُ لِدَسَامَتِهِ .
وَلَمْ يَنْسَ الْمُسَافِرُ نَصِيْبَهُ مِنَ الْحَلَاوَةِ ، فَأَعَدَّ لِنَفْسِهِ
مَا يَكْفِي الْجَمَاعَةَ — مِنْ لَذِيذِ الْفَالُودَجِ — ثُمَّ صَبَرَ إِلَى الصَّبَاحِ ،
فَلَمَّا أَشْرَقَ النَّهَارُ بَدَأَ رَحْلَتَهُ ، وَمَا زَالَ يُوَاصِلُ السَّفَرَ
طُولَ يَوْمِهِ ، حَتَّى إِذَا آذَنَ النَّهَارُ بِالزَّوَالِ ، نَزَلَ عَلَى مَاءٍ
نَمِيرٍ ، جَلَبَهُ السَّيْلُ الْغَزِيرُ ، إِلَى عَيْنٍ أَوْ غَدِيرٍ ، فَأَصَابَ مِنْ
شَهْيِ الزَّادِ حَاجَتَهُ ، وَأَكَلَ مِنَ لَذِيذِ الْحَلَاوَةِ كِفَايَتَهُ .

وَأَتَاكَ الْمُسَافِرُ بِهَذِهِ الرَّحْلةِ فُرْصَةً سَعِيدَةً ، وَمَادَّةً
فَرِيدَةً ، لِأَمَّةٍ مِنَ النَّمْلِ جَائِعَاتٍ ، جُنَّ إِلَيْهِ مُسْرِعَاتٍ ،
وَأَقْبَلْنَ عَلَى مُشَارَكَتِهِ فِي زَادِهِ مُتَسَلِّلاتٍ ، وَقَدْ بَدَتْ
جُسُومُهُنَّ الْمَحْزُوزَاتُ ، كَأَنَّ ظُهُورَهُنَّ — مِنَ الْحَزِّ —
مَقْطُوعَاتٌ .

وَلَا يَفُوتُ شَاعِرُنَا أَنَّ يُدْبِئَهُ إِلَى مَا يَخْتَصُّ بِهِ الضَّعِيفُ
مِنْ قُدْرَةٍ عَلَى الْأَذَى ، وَالْحَاقِ الضَّرَّ بِالْقَوَى ، فَيُقَرِّرُ لَنَا
أَنَّ هَذِهِ النَّمْلَ الضَّعِيفَاتِ ، عَنِ الْأَذِيَّةِ غَيْرُ عَاجِزَاتٍ ،
وَأَنَّهُنَّ — عَلَى تَجَرُّدِهِنَّ مِنَ السُّيُوفِ وَالرِّمَاحِ ، وَأَدَوَاتِ
الْحَرْبِ وَالْكِفَاحِ — قَادِرَاتٌ عَلَى إِيْذَاءِ الْكُفَاةِ الْمُدْجِّجِينَ
بِالسَّلَاحِ .

ثُمَّ يُمَثِّلُ لَنَا شَاعِرُنَا كَيْفَ أَتَاكَ الْمُسَافِرُ لِضَيْوْفِهِ
النَّازِلَاتِ بِسَاحَتِهِ ، أَلَا وَنَا شَهِيَّةً مِنْ فُتَاتِ مَائِدَتِهِ .
وَيُصَوِّرُ لَنَا كَيْفَ طَوَّحَ صَاحِبُنَا مَا زَادَ عَنْ كِفَايَتِهِ
مِنْ الْعِظَامِ ، بَيْنَ كُثْبَانِ الرِّمَالِ وَالْآكَامِ . فَهَيَّا بِذَلِكَ

رِزْقًا لِّطَائِفَةٍ مِنَ الْحَيَّوَانِ ، وَجَدَتْ فِيهَا يَحْتَوِيهِ الْعَظْمُ مِنْ
مُخِّ طَرِيٍّ ، زَادَاجِدَّ شَمْهِىٍّ . فَأَقْبَلَ عَلَيْهِ بَعْضُ الْجِيَاعِ ،
مِنَ الْغُرَبَانِ الْبُقْعِ أَوْ الضَّبَاعِ .

وهنا يُبَدِّعُ لَنَا — فَيُنَاسِفُ الْمَعْرَةَ وَشَاعِرُهَا —
صُورَةَ بَارِعَةٍ لِتِلْكَ الْغُرَبَانِ وَالضَّبَاعِ ، وَكَيْفَ يَتَبَدَّدْنَ فِي
بَدِيعِ ثِيَابِهِنَّ ، فَيُخَيَّلُ لِمَنْ يَرَاهُنَّ ، أَنَّهُنَّ قَدْ تَلَفَعْنَ
وَتَسْرَبَلْنَ بِبَدِيعِ مِنَ الثِّيَابِ وَالْأَبْرَادِ ، مُخَطَّطَةً بِالْبَيَاضِ
وَالسَّوَادِ .

وَإِلَيْكَ النَّصُّ الْعَلَائِيَّ :

أَمْرُ الْأَرْزَاقِ أَزْوَالٌ (عَجَائِبُ) :

عَزَمَ ظَاعِنٌ عَلَى الشُّخُوصِ ، (الْمَسِيرِ) .

فَاتَّخَذَ سُمْمَةً^(١) مِنْ خُوصٍ ،

فِيهَا أَيْضُ حُرٍّ (خَبَرٌ) .

(١) [السُّمْمَةُ : السَّفَرَةُ تَتَّخِذُ مِنَ الْخُوصِ] .

وَعُمْرُوسٌ^(١) (جَدَى) ، أَرْضَعَتْهُ الْخُرُوسُ^(٢) .

وَرِعْدِيدٌ^(٣) ، يَكْتَفِي بِهِ الْعَدِيدُ .

فَسَارَ الْإِنْسَانُ لَمَّا أَبْصَرَ ،

فَلَمَّا فَنِيَ يَوْمُهُ وَأَقْصَرَ^(٤) .

نَزَلَ عَلَى عَيْنِ سَجَرَاءَ [يَضْرِبُ مَاوِئَهَا إِلَى الْحُمْرَةِ ،

أَقْرَبَ عَهْدِهِ بِالسَّيْلِ] ،

فَأَصَابَ مِنَ الطَّعَامِ ،

وَاللَّهُ أَثَرُ (خَصَّ) الْإِنْسَانَ بِطَيِّبِ الْأَكِيلِ [الْمَاءُ كَوْل] .

(١) [العمروس : الجدى ، أو الخروف ، وأكثر ما يستعمل فى الجدى ، ويقال : إن عبد الملك بن مروان قال لعدى بن حاتم :

« ما تعدون أفضل الطعام عندهم ؟ »

قال : العنوق (الإناث من المعزى)

قال « أما نحن فلا نعدل بالعماريس » [.

(٢) [الخروس : التى تلد بكرها ، فيكون لبنها قليلا ، فتعمل لها الخرسنة ، وهى طعام تُطبخه النساء ، ليدر لبنها] .

(٣) [الرعيد ، هنا : الفالوذ ، وفى غير هذا الموضع : الجبان] .

(٤) [أقصر : صار فى قصير النهار ، وهو : آخره] .

فاجتمعَ إليه سُوْدٌ جَزَلٌ^(١) ، (نَمْلٌ) ،
يُوْذِنُ ذَوِي الْأَسْلِحَةِ وَهْنٌ عَزْلٌ ،
فَأَصْبَنَ مَا قَسِمَ لَهُنَّ وَالْحَتَامَةُ النَّزْلُ ، [يَعْنِي أَنَّ مَا سَقَطَ
عَنِ الْمَائِدَةِ كَانَ زَادَهُنَّ ، وَالنَّزْلُ هُوَ : الطَّعَامُ الَّذِي يُصَالِحُ
لِلنَّازِلِ ، إِذَا نَزَلَ بِكَ] .

وَرَمَى بِالْأَنْقَاءِ ، (الْكُتُبَانِ مِنَ الرَّمْلِ) ،
أَعْظُمًا ذَوَاتِ أَنْقَاءٍ^(٢) ، (ذَوَاتِ أَمْخَاخٍ) ،
فَابْتَدَرَهُنَّ بُقْعٌ (جَمْعُ أَبْقَعٍ ، وَهُوَ : الْغُرَابُ ، أَوْ :
الضَّبْعُ ، لَوْنُهُ الْبُقْعُ) كَأَنَّمَا عَلَيْنَهُنَّ لُفْعٌ مِنَ الْبُرْدِ ،
أَوْ السَّبَاجِ^(٣) .

-
- (١) [يقال للنملة : جزاء ، لأجل الحَزْرِ الذي في ظهرها ، ويقال :
بغير أجزل إذا خرجت — من فقار ظهره — فقارة] .
(٢) [مصدر أنقى العظم إذا صار فيه نقي ، وهو : المنخ ، وإذا فتحت
الهمزة ، فهو جمع نَقَى] .
(٣) [اللُفْعُ (جمع لفاع) وهو ما يتلفع به ، والْبُرْدُ : جمع بُرْدَةٍ ،
والسَّبَاجُ : جمع سَبِيجَةٍ ، ثوب فيه سواد وبياض] .

وَمِنْ لَفْتَاتِهِ الطَّرِيفَةُ فِي هَذَا الْبَابِ قَوْلُهُ :

يَرَى الضَّبُّ الرَّاكِبَ .

فَيَقُولُ لِحِسْلِهِ (وَلَدَهُ) :

« اتَّقِ الْحَارِشَ (صَيَّادَ الضَّبِّ) » .

فَيَمُرُّ الرَّاكِبُ عَجَلًا .

وَمَعَهُ جَرَابٌ عُجْوَةٌ .

فَيُلْقِيهِ .

وَيُعْجِلُهُ السَّيْرُ عَنْ أَخْذِهِ .

فَيَكُونُ فِي ذَلِكَ الْجَرَابِ مَعِيشَةٌ لِحِسْلِهِ (وَلَدِ

الضَّبِّ) وَأَبِيهِ .

٧ - فِي طَلَبِ الرِّزْقِ

وَمِنْ بَدَائِعِ الصُّورِ الَّتِي رَسَمَتْهَا رِيْشَةُ هَذَا الْمُبْدِعِ

قَوْلُهُ أَيْضًا يُمَثِّلُ مَا يُعَانِيهِ الْإِنْسَانُ فِي طَلَبِ الرِّزْقِ :

« وَيَعْدُو الْحَاطِبُ نَشِيطًا ، وَفِي يَدِهِ الْمِخْلَبُ (الْمِنْجَلُ) ،

وَعَلَى عَاتِقِهِ الْمَسَدُ ،

فَيَكُونُ أَكِيلَ أُسَامَةِ (مَا كُولَ الْأَسَدِ) مَعَ
الشُّرُوقِ .

وَقَوْلُهُ يُمَثِّلُ مَا تُعَانِيهِ الْقَطَاةُ مِنْ ضُرُوبِ الْأَخْطَارِ
فِي سَبِيلِ التَّامِسِ الرَّزْقِ :

تَنْزِلُ الْقَطَاةُ إِلَى شَرِكِ الْوَلِيدِ ،

وَهِيَ فَارِحَى بِمَالِحَ لَهَا مِنْ الرَّزْقِ ،

فَيَوْوُلُ أَمْرُهَا مَعَهُ إِلَى أَحَدِ ثَلَاثَةِ أَشْيَاءَ :

سَحَطٍ ^(١) مُزَعِفٍ ^(٢) (ذَبْحٍ سَرِيعٍ مُجْهِزٍ)

أَوْ سِجْنٍ حَرَجٍ ،

أَوْ عَذَابٍ مُبَرَّحٍ .

وَقَوْلُهُ :

وَابِكِ عَلَى طَائِرٍ رَمَاهُ فَتَى

لَاهٍ ، فَأَوْهَى بِفِهْرِهِ ^(٣) الْكِتِفَا

أَوْ صَادَفَتْهُ حِبَالَةٌ نُصِبَتْ

فَظَلَّ فِيهَا ، كَأَنَّمَا كُتِفَا

(١) من سحطه : ذبحه سريعا . (٢) من أزغفه : قتله مكانه .

(٣) الفهر : الحجر ملء الكف .

بَكَرَ يَبْغَى الْمَعَاشَ مُجْتَهِدًا

فَقُصَّ — عِنْدَ الشُّرُوقِ — أَوْ نُتِفَا

كَأَنَّهُ — فِي الْحَيَاةِ — مَا فَرَغَ الْغُصْنُ

ن^(١) ، فَعَنَى عَلَيْهِ ، أَوْ هَتَفَا

وَقَوْلُهُ يَصِفُ الْمَحَلَّةَ :

وَتَقْدُمُ الْجَارِسَةُ (الْمَحَلَّةُ) عَلَى مَارِّ الطَّرِيقِ بِاللَّسْبِ

(اللدغ) ، وَحَتَفَهَا فِيهِ .

وَقَوْلُهُ وَفِيهِ إِشَارَةٌ إِلَى طَبِيعَةِ السَّرِقَةِ :

وَيَنَامُ الْوَلِيدُ عِنْدَ وَجَارِ الضَّبَّةِ الْمَكُونِ^(٢) (وَهِيَ :

الَّتِي مَعَهَا يَيْضُهَا)

وَمَعَهُ تَمَرَاتٌ حَشِيفَاتٌ (مِنْ أَرْضِ التَّمْرِ)

فَتَخْرُجُ لِتَسْرِقَهُنَّ مِنْهُ ،

فَيَصِيدُهَا بِالسَّعْيِ الْهَيِّنِ ،

(١) فرع الغصن : علاه . (٢) المكن : بيض الضبة ، وقد مكنت أى باضت فهي مَكُونُ أى بائس مفعول بمعنى فاعل ، ومثله أمكنت فهي ممكن .

٧ — فنون من الغرائز

وَلَا يَقِفُ خَيَالُ هَذَا الْمُبْدِعِ الْمَوْهُوبِ عِنْدَ حَدٍّ ، فَهُوَ
يَتَخَطَّى الْإِنْسَانَ وَالْحَيَوَانَ إِلَى النَّبَاتِ ، وَيَحْفَظُهُ تَأَمُّلُهُ
الْعَمِيقُ أَحْيَانًا إِلَى تَمَثُّلِهِ كَأَنَّهَا حَيًّا ، فَيَسْأَلُ نَفْسَهُ مُتَعَجِّبًا :
تَرَى هَلْ يَشْعُرُ النَّبَاتُ كَمَا نَشْعُرُ ، وَيَخَافُ الرَّدَى كَمَا نَخَافُهُ ؟
« وَإِنْ كَانَتْ صَفْرَةُ الْبَهَارِ مِنْ خَوْفِ الْمَوْتِ ، فَهِيَ
تَشْعُرُ إِذَا دَنَا مِنْهَا الْجَانُونَ .

وَإِنْ كَانَتْ صَفْرُهَا غَرِيزَةً ، فَلَا بَالَةَ (فَلَا مُبَالَاتَةً) لَهَا :
أَفْتِكَ الْجَانِي بِأَخْتِهَا أُمُّ الشَّيْخَةِ (١) .

وَمِنْ رَوَائِعِ تَأَمُّلاتِهِ ، قَوْلُهُ فِي وَصْفِ غَرِيزَةِ النَّمْلِ :
« وَيَنْقَاضُ الْمَازِنُ (يَنْشَقُّ بِيضُ النَّمْلِ) ،

(١) الشَّيْخُ نَبَاتٌ أَنْوَاعُهُ كَثِيرَةٌ وَهُوَ عِنْدَ الْإِطْلَاقِ نَوْعَانِ أَصْفَرُ الزَّهْرِ
يَشْبَهُ السَّنَابَ فِي وَرْقَةٍ وَهُوَ الْأُرْمِيُّ وَأَحْمَرُ غَلِيظُ الْوَرَقِ وَهُوَ الزُّكِيُّ وَكُلُهُ طَيِّبُ
الرَّائِحَةِ وَمِنْهُ عَرَبِيٌّ يَنْبْتُ فِي بِلَادِ الْعَرَبِ تَرْعَاهُ الْمَوَاشِي .
وَمِنْ بَدَائِعِ تَهَكُّمِهِ فِي هَذَا الْبَابِ قَوْلُهُ :

وَرُبَّ وَرْدٍ فِي وَجَنَاتٍ ، صَاحِبُهُ يَسْمَعُ وَيَبْصُرُ ، يَسْقِيهِ — صَبَاحَ مَسَاءٍ —
طَلَّ الدَّمْعُ ، وَهُوَ لَا يَشْعُرُ بِهِ . وَوَرْدَةٌ أُخْرَى فِي شَجَرَةٍ : يَنْتَشِرُ وَرْقُهَا ذُبُولًا
وَعَطْشًا وَالْمَاءُ فِي أَصْلِ قَضِيئِهَا جَارٌ .

عَنْ أَوْلَادِ النَّمْلِ ،
فَيَضْحَكُنَ إِلَى النَّبَاتِ الْأَخْضَرِ ،
وَهُنَّ لَمْ يَخْتَلِفْنَ قَطُّ فِي جَمْعِ الْقُوتِ .
وَعِنْدَهُ أَنَّ الْعِلْمَ يُدْرِكُ بِثَلَاثَةِ أَشْيَاءَ :
« بِالْقِيَاسِ الثَّابِتِ ،
وَالْعِيَانِ الْمُدْرِكِ ،
وَالْخَبَرِ الْمُتَوَاتِرِ » .

وَتَمَّ يَقُولُ :
أَمَّا الْحِسُّ ، فَزَجْرُ طَيْرٍ هِيَ خَلِيقَةٌ بِالْكَذِبِ ،
وَإِنْ صَدَقَتْ فَبِاتِّفَاقٍ :
وَالْعِلْمُ لِلَّهِ كَمَلًا .

فَلَا غَرَوْا إِذَا رَأَيْنَاهُ — كَمَا أَسْلَفْنَا الْقَوْلَ فِي رِسَالَةِ
الْغُفْرَانِ — يَحْتَقِرُ الْفَالَّ ، وَلَا يُؤْمِنُ بِالطَّيْرَةِ .
وَهُوَ يَدُلُّ عَلَى رَأْيِهِ فِي فُصُولِهِ وَغَايَاتِهِ بِفُنُونٍ مِنَ
الْأَدَلَّةِ ، فَيَقُولُ مَثَلًا :

« وَإِنْ كَانَ النَّعِيبُ مِنْ شَوَاهِدِ الرَّحِيلِ ،
فَالْغُرَابُ يُعَلِّمُ النَّعِيبَ ! وَمَعَاذَ اللَّهِ !
شَغَلَ ابْنُ دَايَةَ (الْغُرَابُ) بِسُؤْرِ اللَّيْثِ (بِمَا يُبْقِيهِ الْأَسَدُ).
وَرَذِيَّةُ السَّفَرِ (النَّاقَةُ الْمَهْرُؤَةَ مِنَ السَّيْرِ) عَنْ تَوْكَفٍ
الْأَخْبَارِ (انْتَظَارِهَا) »

* * *

وَمِنْ طَرَائِفِهِ فِي هَذَا الْبَابِ قَوْلُهُ : « فَكَمْ نَاطِرٍ إِلَى
الْفِرَاقِ ، ثُمَّ كُفِّيهِ » إِلَى أَنْ يَقُولَ :
« وَقَدْ يُكْذِبُ الْمَوْعِدَةَ بِنَأْيِ الْعَدِ ، أَمْرٌ يَخْدُثُ
بَعْدَ شَدِّ الْأَكْوَارِ » .

وَقَوْلُهُ ، وَهُوَ مِنْ بَدَائِعِ التَّهَكُّمِ السَّاخِرِ :
وَأَجَهَتْ قُبْرَةً ، فَخَفَّتَ تَطِيرًا

مَا كُلُّ مَيْتٍ - لَا أَبَالَكَ - يُقْبَرُ (١)

وَهُوَ يَنْفِي عَنْهَا الْعَقْلَ كَمَا يَنْفِي الْعِلْمَ ، وَيُرَى أَنَّ قَدِ

(١) يعنى أنك تطيرت بالقبرة ، لأنها ذكرت بك بالقبر ، فهل علمت أن القبر
أمنية قد لا تتحقق لكل ميت ، وربما عزت عليك فلم تظفر بها .

اِخْتَصَصْنَا بِهِمَا - مَعَشَرَ الْإِنْسِيَّ - دُونَ سَائِرِ الْحَيَوَانِ ،
وَيَسْتَدِلُّ عَلَى رَأْيِهِ بِالكَثِيرِ مِنَ الدَّلَائِلِ وَالْمَشَاهِدَاتِ ،
فَهُوَ يَقَرُّرُ مَثَلًا أَنَّ الْهَرَمَةَ الْمُسِنَّةَ مِنَ النَّيَاقِ تَرَى جِلْدَ
الْحَوَارِ (١) الْمَحْشُورَ تَبْنًا أَوْ ثَمَامًا أَوْ غَيْرَهَا فَتَعْطِفُ عَلَيْهِ
وَتَحْسِبُهُ وَلَدَهَا الْفَصِيلَ فَتَدْرُ ، وَلَوْ عَقَلَتْ أَوْ عَلِمَتْ
لَمَزَتْ بَيْنَ الْفَصِيلِ وَالْبَوِّ - فَهُوَ يَقُولُ :

إِنْ كَانَ لِلْإِبْلِ غَرِيزَةُ عِلْمٍ ، فَبِالْشَّارِفِ تَدْرُ عَلَى الْبَوِّ (٢) ؟
وَإِنَّمَا هُوَ ثَمَامٌ !

وَكَيْفَ لَا يَهْرُبُ الْعَوْدُ مِنَ الْكَلَالِ الْوَحِيمِ
وَعَلَامَ تَنْسَاقُ الْهَجْمَةُ (٣) - أَمَامَ الْفَتَى الْغَرِّ - إِلَى مُدَى
الْجَازِرِ ، وَسَيْفِ الْعَاقِرِ .

(١) ولد الناقة من حين يرضع إلى أن يفطم ويفصل عن أمه .
(٢) قال البيهقي :

وجميع هذا الخلق بو
لجوابهم عن ذلك : وَ
لَا ، لم يكن للخلق ضو
وقى لنا ليت ولو

إن الزمان زمان سو
فإذا سألتهم ندى
لو يملكون الضوء بخ
ذهب الكرام بأسرهم

(٣) الهجمة : القطعة من الابل

أَوْ يَقُولُ مِنْ حَدِيثٍ مُعْجَبٍ يُدَلُّ فِيهِ عَلَى جَهْلِ النَّعَامِ :
« أَلَمْ يَضَعِ النَّظْمَ (أى : البيض) بِمَكَانٍ : هُوَ - عِنْدَهُ -
مَنْعِيٌّ ، فَسَقَاهُ الزَّاجِلَ (سَقَاهُ مَاءَهُ) .

وَحَضَنَهُ اللَّيْلَ الْأَذْهَمَ .
ثُمَّ حَرَبَهُ (سَلَبَهُ) إِيَّاهُ ، وَلَدَ الْأَمَّةِ الْفَاجِرَةَ ، وَلَوْ أَمَدَّهُ
اللَّهُ بَعْلَهُمْ ، لَعَلِمَ كُلُّ مَا ظَهَرَ وَثَاخَ (سَاخَ فِي الْأَرْضِ)
أَوْ يَقُولُ :

وَمَا يَفْرُقُ الْفِرْزُ (الْقَطِيعُ مِنَ الْغَنَمِ ، أَوْ : الْجَدَى) بَيْنَ
الْغَافِ وَالْقَرْظِ ^(١) وَبَيْنَ غَيْرِهِ مِنْ أَصْنَافِ الشَّجَرِ .

٨ - تصاريف القدر

عَلَى أَنَّ الْقَدَرَ الْمُسَخَّرَ الدَّائِبَ ، الْمُنْتَصِرَ الْغَالِبَ ،
الْوَاهِبَ السَّالِبَ ، نَافِذُ الْقَضَاءِ ، فِي الْإِنْسَانِ وَالْحَيَوَانِ عَلَى
السَّوَاءِ - كَمَا أَسْلَفْنَا - « وَأَبَتْ الْأَقْضِيَّةُ مِنْ رَبِّ الْعَالَمِينَ -

(١) الغاف والقرظ : نبتان يدبغ بهما ، وقد أشار إلى القرظ في فصل آخر
من فصوله فتمثل الفرز (القطيع من الغنم) كأنما ألهمه الله أن يغتاط من هذا
النبت لأن جلد الغنم سيدبغ به بعد الموت ، فيقول فيلسوف المعرة : « يمر الفيرز
بالقرظ ، فيرعاه رعى حنق (شديد الغيظ) كأن له علما بما يليق الأديم ، فألطف
بالله ملهما الخ » .

كَمَا يَقُولُ شَاعِرُنَا — أَنْ تَتْرُكَ رِيَشَ جَنَاحٍ وَافِيًا . لِكُلِّ
خَيْرٍ بِالشَّرِّ أَنْتِساخٌ :

وَلَيْسَ لَنَا مِنْ حِيلَةٍ فِي دَفْعِ الْقَضَاءِ ، فَكَمْ نَهَابُ
وَنَجَزَعُ ، وَنَتَرَدَّدُ فِي الْأَقْدَامِ فَتَرْجِعُ ، ثُمَّ يَحْفِزُنَا
الْقَدَرُ إِلَى اقْتِحَامِ الْمَهَالِكِ فَتَسْتَسْلِمُ لِحُكْمِهِ فِي ضَرَاةِ
الْمُذْعِنِينَ ، وَتَلْقَى مَصَارِعَنَا فِي قِمَاءِ الْأَذِلَاءِ صَاغِرِينَ :
نَهَابُ أُمُورًا ثُمَّ نَزَكَبُ هَوَاهَا

على عَنَتٍ : مِنْ صَاغِرِينَ قِمَاءِ
فَلَا غَرَوْ إِذَا صَرَخَ شَاعِرُنَا صَرَخَاتٍ مِنَ الْأَعْمَاقِ ،
تُمَثِّلُ مَا انْتَهَى إِلَيْهِ فِرْعَاهُ حِينَ يَقُولُ :
« نَجَوْتُ مِنَ الْحِبَالَةِ ، فَكَيْفَ رَجَعْتُ ؟

وَعَلَى عِلْمٍ وَضَعْتُ الْقَدَمَ فِي النَّارِ ! »
وَفَرَخُ الْغُرَابِ وَهُوَ — فِيمَا يَرَى — آيَةٌ فِي الْحَرْصِ وَحِدَّةِ
الْبَصَرِ ، كَيْفَ يَصْرَعُهُ الْقَضَاءُ فَلَا يُنْجِيهِ مِنْهُ الذِّكَاوَةُ وَالْحَذَرُ ؟
شَدَّ مَا أَبْدَعَ — شَاعِرُنَا — فِي قَوْلِهِ :

« وَالْبُحُّ (فَرَخُ الْغُرَابِ) — عَلَى صَفَاءِ عَيْنِهِ ،
 وَوَصِيَّةِ أَبِيهِ لَهُ بِاتِّقَاءِ الْأَنْبِيَاءِ — يَرَى الْعَظْمَ فِي
 خَبَاءِ الْقَوْمِ ، فَيَحْمِلُهُ الشَّرُّ عَلَى هُجُومِهِ . فَيُغَيِّرُ طَمَعًا فِي
 الْمُسَاكَةِ (الْمُسَخِّ الَّذِي يُسْتَخْرَجُ مِنَ الْعَظْمِ) . فَإِذَا
 ظَفَرَ بِهِ ، ابْتَغَى مَا طَلَبَ فَأَخْفَقَ ،
 وَأَأْفَاهُ صَفْرًا مِنَ الْقَصِيدِ (الْمُسَخِّ الْغَلِيظِ)
 وَالرَّيْرِ (الْمُسَخِّ الذَّائِبِ) .
 وَقَدْ رَأَى الصَّبِيَّ ، فَعَرَضَ لَهُ بَعْظَمٍ فِيهِ صَلِيبٌ ^(١)
 (وَدَكٌ) ، فَيَحْمِلُهُ جَشَعُ النَّفْسِ عَلَى كَرِّ الْغَارَةِ .
 فَيَرْمِيهِ ، فَيَطِيرُ جَنَاحَهُ .
 وَهُوَ بِالْأُولَى مَا اتَّعَظَ ، وَقَدْ سَلِمَ فِيهَا وَدَجُّهُ ^(٢) مِنْ
 الْمُدِيَةِ ، وَجَنَاحُهُ مِنْ رُزْءِ الْمُصِيبَةِ ١
 لَقَدْ رَمَاهُ الْقَدَرُ بِاتِّلَاخٍ (بِاخْتِلَاطِ الْأَمْرِ عَلَيْهِ) .

(١) الصليب : الودك المستخرج من صليب العظام .

(٢) الودج : عرق الأخدع الذي يقطعه الذابح فلا يبقى معه حياة ، والأخدع
 عرق في العنق في موضع الحجامة .

وَقَوْلُهُ :

تَبَنَّتْ الضَّائِنَةُ فَتَمِيرُ ذَاتَ الْجُرْأَةِ (نَصَابِ الشَّفَرَةِ
وَالسَّكَنِ) فَيَعُودُ بِضِيْعِهَا (لَحْمِهَا) فِي الْبُرْمَةِ (الْقَدَرِ) .

وَجِلْدُهَا مَعَ الْمَنِيَّةِ (وَهِيَ : الْجِلْدُ مَا دَامَ فِي الدَّبَاغِ)
وَصُوفُهَا عَمِيَّةٌ ^(١) لِلْوُكْعَاءِ الرَّاعِيَةِ ^(٢) .

وَقَوْلُهُ يَصِفُ مَصْرَعَ الطَّبْنِيِّ :

« وَإِنَّهُ لَيَرِدُ الْغَدِيرَ »

فَيَرَى فِيهِ خِيَالَ نَفْسِهِ ، وَقَدْ فَقَدَ قَرِينَتَهُ مُنْذُ لَيْالٍ ،
فَيَظُنُّهَا خِيَالَهُ

فَيَظَلُّ يَدْعُوهَا بِالنَّزِيبِ ^(٣)

وَيُوفِي عَلَى التُّطْفَةِ الزَّرْقَاءِ ، (الْمَاءُ الصَّافِي)

فَيَجِدُ رِيحَ الْقَانِصِ فَيَنْفِرُ ، وَيَرْكَبُ — مُعْتَسِفٌ

(١) العمية : شيء من الصوف ، يجعل في الحلقة ليفزل .

(٢) الوكعاء هنا : اللئيمة الحفقاء .

(٣) النزيب : صوت الطَّبْنِيِّ .

الطَّرِيقِ - فَيَقَعُ فِي الْحِبَالَةِ ، وَلَوْ رَجَعَ عَلَى قَرْوَاهُ (لَوْ رَجَعَ فِي
الطَّرِيقِ الَّذِي جَاءَ فِيهِ) كَانَ أَحْزَمَ .

وَقَوْلُهُ :

وَيُدَلِّجُ السَّيِّدُ (الذُّنْبُ) - وَقَدْ أَسَنَ وَانْحَصَّ (١)
فِي اللَّيْلَةِ ذَاتِ الْأَزِيرِ (الْبَرْدِ) وَالْجُرْيَاءِ (الشَّمَالِ) - إِلَى
مُرَاجِ الْغَنَمِ .

فَإِذَا رَأَى الْجَدِيرَةَ (الْحَظِيرَةَ) ، بَشَّرَ نَفْسَهُ الشَّكَمَةَ
(الشَّدِيدَةَ الْجُزَعِ) (٢) ، وَوَعَدَ مَعَهُ الْوِزَامَ ، (ذَاتَ الْأَطْبَاقِ
مِنَ الْكَرْشِ) .

فَتَكُونُ حُظْوَتُهُ فِي تِلْكَ الْجُهِمَةِ (الْقِطْعَةِ مِنَ اللَّيْلِ) (٣)
حُظْوَةَ غُلَامٍ (سَهْمُهُ الصَّغِيرِ) فِي اللَّبَةِ ، (الْمُنْحَرِ) أَوْ

(١) انحص : إذا سقط شعره ، وهو أخبت ما يكون [.

(٢) [المعنى : أنه قد اشتد جوعه فجزع منه] .

(٣) [ويقال : هي أول ما خير الليل] .

مَشْقَصَ شَيْخٍ (وَالْمَشْقَصُ : نَصْلٌ مُسْتَطِيلٌ) فِي الزَّافِرَةِ
(الصَّدْر) .

وَقَوْلُهُ :

« وَيَمْدُ الظَّبِّي جِيدَهُ (عُنْقُهُ) إِلَى الْبَرِيرِ (وَهُوَ : أَوَّلُ
مَا يَظْهَرُ مِنْ ثَمَرِ الْأَرَاكِ) وَحَتَفَهُ فِيهِ . وَيَجْذِبُ الرَّهْدَنَ
(وَهُوَ ضَرْبٌ مِنَ الْعَصَافِيرِ) طَمَعٌ فِي الْحَبَّةِ الْوَاحِدَةِ ،
فَيَقَعُ فِي ذَاتِ الْحِمَامِ » .

وَقَوْلُهُ يَصِفُ غَفْلَةَ الْأَرِيبِ الْأَلْمَعِيِّ وَمُفَاجَأَتِ
الْقَدَرِ :

« وَرُبَّ مَطْلُوبٍ بَرَّةٍ ، (بِشَارٍ) هَجَمَ عَلَى إِرَقَةٍ ، (نَارٍ)
وَهُوَ الْقَائِفُ (الْعَارِفُ بِالْآثَارِ) اللَّيْبُ . يَتَوَهَّمُهَا أُطِيمَةٌ ^(١)
فَرِيقَهُ (تَنُورَ أَصْحَابِهِ) .

فَوَجَدَ لَدَيْهَا ثَأْرَةً (طَلَابَ ثَأْرٍ) زُرْقَ الْعُيُونِ .

(١) الأُطِيمَةُ : مَوْقِدُ النَّارِ وَالْفَرِيقُ : الطَّائِفَةُ مِنَ النَّاسِ — أَكْثَرُ مِنَ
الْفَرَقَةِ — وَرَبَّمَا أَطْلَقَ عَلَى الْجَمَاعَةِ قُلْتَ أَوْ كَثُرَتْ .

وَقَوْلُهُ يَصِفُ مَضْرَعَ الْعَجُوزِ :

وَتَهْوِي الشَّهْلَةَ (الْعَجُوزُ الَّتِي فِيهَا بَقِيَّةٌ^(١)) الْمَجْرَسَةُ
(الْمَجْرَبَةُ) بِيَدِهَا إِلَى ابْنِ أَوْ بَرٍّ لَتَأْكُلَهُ ، أَوْ تَطْعِمَهُ فَطِيْمَهَا ،
فَيَجُرُّ الْمَنِيَّةَ .

وَمِنْ أْبْرَعِ مَا يُخْتَمُ بِهِ هَذَا الْفَصْلُ قَوْلُهُ يَصِفُ
غَوَائِلَ الْأَيَّامِ ، وَفَتَكَاتِ الْأَقْدَارِ :
بَلِ الْفَتَيَانِ^(٢) اعْتَادَ قَلْبِي أَذَاهُمَا

يَشِيْمَانِ^(٣) أَسْيَافَ الرَّدَى ، وَيَهْزَانِ
عَزِيزَانَ بِاللَّهِ : الَّذِي لَيْسَ مِثْلُهُ ،

يُذِلَّانِ — فِي مِقْدَارِهِ^(٤) — وَيُعِزَّانِ
وَكَمْ فَتَكَ — وَالْحِسُّ قَدْ بَانَ عَنْهُمَا —

بَأَهْلٍ وَهُودٍ ، أَوْ جِبَالٍ ، وَحُزَّانٍ^(٥)

(١) [وَأَنشُدْ لِبَعْضِ الْأَصْوَصِ :

لَمْ يَخْلُقِ اللَّهُ شَيْئًا كُنْتُ أَبْغُضُهُ غَيْرَ الْعَجُوزِ ، وَغَيْرِ الْكَلْبِ ، وَالْقَمَرِ
هَذَا نُبُوحٌ ، وَهَذَا يَسْتَضَاءُ بِهِ ، وَهَذِهِ شَهْلَةٌ قَوَامَةُ الشَّحْرِ]

(٢) يَعْنِي : اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ . (٣) يَسْتَلَانِ . (٤) قُدْرَهُ .

(٥) حُزَّانٌ بِالضَّمِّ وَالْكَسْرِ جَمْعُ حَزِينٍ ، وَهُوَ : الْمَكَانُ الْغَلِيظُ الْمُنْقَادُ .

وَمَا تَرَكَكَ الْقَبَابِ ، وَغَادَرَا

— بِرُحْمَيْنِ ، أَوْ جُرْزَيْنِ ^(١) — أُنْشَرَةَ جُرْزَانِ ^(٢)

سَلَا « غَابَ تَرَجٌ » ^(٣) وَ « الْأُنَيْعِمِ » ، كَمْ ثَوَى

— بِذَلِكَ وَهَذَا — مِنْ أَسُودٍ وَخِزَّانٍ ^(٤)

(١) الجرز : عمود من حديد أو فضة .

(٢) جرزان : ناحية بأرمينية الكبرى .

(٣) ترج : مأسدة ، يقال في المثل : « هو أجراً من الماشي بترج » .

(٤) الخزان : الأرانب (جمع خرز ، كسر د ، وهو الذكر من الأرانب) .

الفصل الثالث

قصتان

١ - أسامة والفار

هذه أمثلة قليلة من الصور التي رسمتها ريشة
الفيلسوف الشاعر في قصصه الفنية - اجتزأنا بها في
الفصول السابقة - تقرأوها فتملأ الروعة نفسك ، وستمر
بك في هذه الرسالة جبهة أخرى من هذه الصور ، فلا
تدري بأي دقائقها تعجب ؟

أبهذا الإيجاز البرقي الخاطف الذي يسكد يودع فيه
كاتبه صورة كاملة في فقرة من فقراته ؟ أم بهذه الحياة
الشاملة التي تفيض بها شخصه ؟ أم بهذا الأثر الباقي الذي
تتركه قراءتها في نفسك ؟ أم بهذا العمق الفلسفي الذي
يجلواك من خفايا النفس الحيوانية نوازع وخلجات ،
وأملاً ورغبات ، ومظالم جائرات ، ولقعات بارعات ،

لَا تَكَادُ تَعْرِضُ لِغَيْرِ هَذَا السَّاخِرِ الْبَارِعِ الْعَمِيقِ ، وَلَا يَكَادُ
يُظْفَرُ بِاقْتِنَاصِهَا إِلَّا مَنْ وَهَبَ مِثْلَ بَيَانِهِ الْفَنَى الْإِخَازِ ،
وَبَصَرِهِ الْفَلَسَفَى النَّفَازِ .

وَكَأَنَّمَا صَيَّغَ شَاعِرُنَا وَصَافًا بِفَطَرَتِهِ ، قَصَاصًا بِطَبِيعَتِهِ ،
فَهُوَ يَصُوغُ — مِنَ الْمَعَانِي الْعَادِيَةِ الْمُتَعَارِفَةِ الْمَأْلُوفَةِ —
قِصَصًا يَنْسُجُ وَقَائِعَهَا عَلَى مَنَوَالِهِ ، مِنْ وَحْيِ خَيَالِهِ ، فِي
أَسْلُوبِهِ الْمِثَالِيِّ الْجَدِيدِ ، وَبَيَانِهِ الْعَلَانِيِّ الْفَرِيدِ .

فَهُوَ لَا يَفْتَأُ يَتَكَرَّرُ الْمِثَالُ ، وَيَفْتَنُ فِي ضَرْبِ الْأَمْثَالِ ،
وَالْإِبْدَاعِ فِي الْخَيَالِ ، فَلَا يَكَادُ يَشْرَعُ فِي الْبِدَايَةِ ، حَتَّى
يَبْلُغَ الْغَايَةَ ، فِي بَيَانِ نَضِيرٍ ، وَخَطْوِ قَصِيرٍ ، يُودِعُ أَبْرَعِ
الْأَلْفَتَاتِ ، فِي مُوجَزِ الْكَلِمَاتِ .

فَإِذَا قَالَ ابْنُ الرُّومِيِّ ، يُفَنِّدُ رَجُلًا يَتَسَامَى إِلَى هِجَاءِ
مَنْ لَا يُدَايِنُهُمْ كِفَايَةً وَفَضْلًا :

مَا حَقُّ مِثْلِكَ أَنْ تَفُوَّ هَ ، بِمَدَحِهِمْ ، بَلَدَهُ الْمَعَابَةِ !
ثُمَّ جَاءَ الْمُتَنَبِّئِيُّ ، فَقَالَ :

إِنَّمَا التَّهْنِئَاتُ لِلْأَكْفَاءِ وَلِمَنْ يَدَّيْنِي مِنَ الْبُعْدَاءِ
رَأَيْنَا شَيْخَنَا فِي رِسَالَةِ الْهِنَاءِ ، يُفَصِّلُ هَذَا الْمَعْنَى عَلَى
طَرِيقَتِهِ الْقَصَصِيَّةِ ، وَيَقَرِّرُ أَنَّ التَّهْنِئَةَ لَا تَقَعُ إِلَّا بَيْنَ الْكُفَاءِ
وَالْأَنْدَادِ .

فَلَا يَجُوزُ لِصُعْلُوكٍ مَهْمَا بَلَغَ بِهِ الْحُبُّ وَالْوَلَاءُ ، أَنْ
يَتَسَامَى إِلَى مَقَامِ الْوُزَرَاءِ وَالْأَمْرَاءِ ، وَلَنْ يَشْفَعَ لَهُ إِخْلَاصُهُ
وَصِدْقُ إِعْجَابِهِ فِي رَفْعِ تَهْنِئَتِهِ إِلَى مَنْ لَيْسَ لَهُ بِكَفٍ .

ثُمَّ ضَرَبَ — لِذَلِكَ — مَثَلَ الْأَسَدِ ، ظَفَرَ بِمَا سَعَى لَهُ
مِنْ صَيْدٍ ، ثُمَّ أَكَلَ مِنْهُ مَا شَاءَ ، وَأَقْبَلَ عَلَى مَجْلِسِهِ وَفُودِ
الْمُهَنِّينَ ، مُتَرَدِّدِينَ خَائِفِينَ ، وَقَدْ انْعَقَدَتْ مِنَ الْهَيْبَةِ
الْأَسْنَتُهُمْ ، فَجَلَسُوا حَوْلَهُ صَامِتِينَ ، فَإِذَا اجْتَرَأَ مِنْهُمْ عَلَى
الْكَلَامِ شُجَاعٌ — مِنْ كِبَارِ الْحَاشِيَةِ — فَلَفْظَةً مُوجِزَةً ،
أَوْ كَلِمَةً مُخْتَصِرَةً ، حَتَّى لَا يَتَعَرَّضَ لِخَطَلٍ ، أَوْ يَتَوَرَّطَ فِي زَلٍّ .

ثُمَّ يُلَوِّذُ بِالصَّمْتِ يُوَثِّرُهُ بَيَانًا ، وَيَتَّخِذُهُ مَعِيرًا عَنِ
إِجْلَالِهِ وَتَرْجُمَانًا .

وَتَمَّةٌ يَعْرِضُ لَنَا حَاشِيَةَ الْأَسَدِ ، وَهِيَ تَحْفُ بِمَوْلَاهَا
فِي خُنُوعٍ وَضَرَاةٍ وَصَمْتٍ ، وَإِنَّهَا لَكَذَلِكَ إِذَا بَفَّارٌ كَانَ
يَعِيشُ فِي جَوَارِ مَلِيكِهِ آمِنًا قَرِيرَ الْعَيْنِ لَا يَجْرُؤُ عَلَى
إِيذَائِهِ قِطْعٌ فَاتِكٌ غَدَّارٌ ، وَلَا يَقْدِرُ عَلَى الْفَتْكِ بِهِ مِنْ
بَنَاتِ عَرَسٍ شَرِيرٍ مِنَ الْأَشْرَارِ . فَقَدْ وَجَدَ الْفَارُ فِي حِمَى
الْأَسَدِ نَجَاةً مِنْ جَوْرِ الْجَائِرِينَ ، وَسَلَامَةً مِنْ اعْتِدَاءِ الْمُعْتَدِينَ .

وَقَدْ أَبَى عَلَى هَذَا الْفَارِ غُرُورُهُ وَحِمَاقَتُهُ إِلَّا أَنْ يَعْدُوَ
خَطَرَهُ ، وَيَتَجَاوَزَ مِقْدَارَهُ ، فَيَرْفَعَ تَهْنِئَتَهُ إِلَى مَلِيكِهِ
الْعَظِيمِ يُودِعُهَا مَوْفُورَ سُرُورِهِ وَابْتِهَاجِهِ يَمَا ظَفِرَ بِهِ مِنْ
رُتَبَةٍ سَمِيَّةٍ .

وَمَا كَادَ الْأَسَدُ يَرَى جُرْأَةً هَذَا الْمَطْطُولِ بِالثَّنَاءِ عَلَيْهِ

حَتَّى نِكَرَ مِنْهُ غُرُورَهُ وَجُرْأَتَهُ ، وَعَابَ عَلَيْهِ وَقَاحَتَهُ ،
فَيَسْتَعِلُّ غَضَبًا ، وَيَبْدُو عَلَى مُحِيَّاهُ الْمُتَجَهِّمِ ، مِنْ فُنُونِ الْغَيْظِ
وَالْحَنَقِ مَا يَمَلَأُ قُلُوبَ الْحَاضِرِينَ رُغْبًا وَفَزَعًا ، حَتَّى لِيُخِيلَ
إِلَيْهِمْ أَنَّهُ مِنْ فَرَطِ الْغَضَبِ عَلَى أَتُونِ مُضْطَرِمٍّ ثُمَّ نَظَرَ
الْأَسَدَ ، وَهُوَ يَكَادُ يَلْتَهَبُ نَارًا ، إِلَى ذَنْبٍ مِنْ أَفْرَادِ
حَاشِيَتِهِ ، أَوْ لَعَلَّهُ نَظَرَ إِلَى نَمِرٍ ، فَمَا يَدْرِي حَقِيقَةَ ذَلِكَ
مُخْبِرٌ ، فَأَذْرَكَ صَاحِبُنَا مَا يَتَوَخَّاهُ مَوْلَاهُ ، وَأَذْعَنَ لِتَنْفِيدِ
أَمْرِهِ ، فَأَشَارَ مِنْ فَوْرِهِ إِلَى قِطٍّ مِنْهُ قَرِيبٍ أَنْ يُلْحَقَ
بِذَلِكَ الْأَخْرَقِ الطَّائِشِ مَا يُنَاسِبُهُ مِنْ أَذِيَّةٍ .

وَمَا كَادَ الْفَارُّ الْمُسْكِينُ يَرَى مَا جَلَبَهُ عَلَيْهِ انْدِفَاعُهُ
وَتَسَرُّعُهُ حَتَّى هَالَهُ مَا يَرَاهُ ، فَصَرَخَ مُسْتَعْثِفًا بِالْأَسَدِ مَوْلَاهُ ،
وَرَاحَ يُؤَلُّوْلُ وَقَدْ أَخَذَتْهُ مَخَابِ الْقِطِّ ، وَهُوَ لِفَرَطِ غَبَاوَتِهِ ،
وَمَوْفُورِ شَقَاوَتِهِ — لَا يَدْرِي أَى ذَنْبٍ أَسْلَفَهُ فَاسْتَحَقَّ بِهِ هَذَا
الْعِقَابَ ، وَيَصِيحُ الْفَارُّ الْغَيُّ وَقَدْ أَخَذَ مِنْهُ الْعَجَبُ كُلَّ
مَا أَخَذَ ، فَيَصْرُخُ مَذْهُوشًا : « كَيْفَ أَقْتُلُ وَأَنَا أَعِيشُ فِي

جَوَارِ مَوْلَانَا الْأَسَدِ الْعَظِيمِ وَرِعَايَتِهِ ، وَأَنْعَمُ بِعَطْفِ مَلِيكِنَا
الرَّحِيمِ وَعِنَايَتِهِ .

فَلَا يَلْبَثُ أَنْ يَنْبَرِيَ لِهَذَا الطَّائِشِ الْمَأْفُونِ (ضَعِيفِ
الرَّأْيِ) جُنْدِيٍّ مِنْ أَفْرَادِ الْحَاشِيَةِ يُفَسِّرُ — بَعْدَ نَفَازِ
الْقَضَاءِ فِيهِ مَا غَمَضَ عَنْهُ مِنَ التَّفْسِيرِ ، وَيُوضِّحُ مَا جَلَبَهُ
عَلَيْهِ غُرُورُهُ مِنْ سُوءِ الْمَصِيرِ . فَقَدْ أَبَى إِلَّا أَنْ يَعْدُو قَدْرَهُ
وَيَتَجَاوَزَ خَطَرَهُ ، فَلَقِيَ عَلَى حِمَاقَتِهِ هَلَاكًا وَمَصْرَعًا ، وَلَمْ
يَجِدْ فِي كُرْبَتِهِ مُغِيثًا وَلَا مَفْرَعًا .

٢ — النَّسْرُ وَالْعُصْفُورُ

ثُمَّ انْتَقَلَ شَاعِرُنَا عَلَى عَادَتِهِ فِي التَّنْقِيلِ مِنْ قِصَّةِ الْأَسَدِ
مَلِكِ الْحَيَوَانِ إِلَى قِصَّةِ النَّسْرِ مَلِكِ الطَّيْرِ ، يُفَصِّلُ مَثَلًا
آخَرَ ، يَضْرِبُهُ لِمَنْ يَتَجَاوَزُ طَوْرَهُ ، وَيَتَعَدَّى قَدْرَهُ ،
فَصَوَّرَ لَنَا لَوْحًا بَارِعًا آخَرَ مِنْ أَلْوَاحِ الْفَنِيَّةِ يُمَثِّلُ نَسْرًا
عَظِيمًا اقْتَنَصَ — فِي بَعْضِ جَوَلَاتِهِ — ظَبْيًا ، وَاجْتَرَأَ عَلَى

الْكَلَامِ فِي حَضْرَتِهِ — مُهْنَةً مِنْ بَرِّ الطُّيُورِ الصَّامِتَةِ —
عُصْفُورٌ طَائِشٌ — كَمَا اجْتَرَأَ مِنْ قَبْلِهِ ذَلِكَ الْفَارُّ الْمَأْفُونُ
عَلَى تَهْنِئَةِ الْأَسَدِ — فَالْتَفَتَ مَلِكُ الطَّيْرِ إِلَى بَازٍ مِنَ الْبُرَاةِ
يُسِيرُ إِلَيْهِ أَنْ يُعَاقِبَهُ عَلَى سُوءِ آدَبِهِ وَقَحَّتِهِ ، وَاجْتِرَائِهِ
عَلَى الْكَلَامِ فِي حَضْرَتِهِ ، فَأَكَلَهُ الْبَازِي مِنْ فَوْرِهِ ، وَالْحَقَّ
إِلَيْهِمْ بِأَطْفَالِهِ ، وَلَقِيَ حَتْفَهُ عَلَى مَقَالِهِ .

الفصل الرابع

في عالم الأسود

١ - بين المعري وابن الرومي

لَوْ شَاءَ بَاحِثٌ مُنْصِفٌ مُتَعَمِّقٌ أَنْ يُودِيَ لِشَاعِرِنَا
الْفَيْلَسُوفِ مَا هُوَ جَدِيرٌ بِهِ مِنَ الرَّعَايَةِ وَالْحُقُوقِ ، لَأَعْجَزَهُ
أَنْ يُتَابَعَ رَوَائِعَ صُورِهِ ، وَيَتَقَصَّى بَدَائِعَ أَخْيَلَتِهِ ، فَمَا
أَكْثَرَ مَا يَعْزُضُ شَاعِرُنَا الْمَوْهُوبَ لِلْمَعْنَى الْوَاحِدِ فِي
مُنَاسَبَاتٍ مُتَعَدِّدَةٍ ، مُتَقَارِبَةٍ فَرَاتِهَا أَوْ مُتَبَاعِدَةٍ ، فَيَجْلُو فِي
كُلِّ مُنَاسَبَةٍ مِنْهَا جَهْرَةً مِنَ الْفُنُونِ الْفِكْرِيَّةِ الْبَهِيجَةِ ،
يَحَارُ الْبَاحِثُ فِي مُتَابَعَتِهَا ، وَيَضِيقُ ذُرْعًا بِاسْتِيعَابِهَا ، فَيَتَمَثَّلُ
بِقَوْلِ الْقَائِلِ :

وَأَنْتَ إِذَا أَرْسَلْتَ طَرْفَكَ رَائِدًا

لِقَلْبِكَ يَوْمًا ، أَتَعْبِتُكَ الْمَنَاطِرُ

رَأَيْتَ الَّذِي لَا كُلُّهُ أَنْتَ قَادِرٌ

عَلَيْهِ ، وَلَا عَنْ بَعْضِهِ أَنْتَ صَابِرٌ

وَرُبَّمَا اجْتَزَأَ بِالْقَلِيلِ ، عَنْ الْكَثِيرِ ، مُتَمَثِّلًا بِقَوْلِ

ذِي الرُّمَّةِ :

فَإِنْ لَمْ يَكُنْ إِلَّا تَزَوُّدُ سَاعَةٍ

قَلِيلًا ، فَإِنِّي نَافِعٌ لِي قَلِيلُهَا

أَوْ قَوْلِ « يَزِيدُ بْنُ الطُّنَجِيِّ » :

أَلَيْسَ قَلِيلًا نَظْرَةٌ إِنْ نَظَرْتُهَا

إِلَيْكَ ، وَكَأَنَّ لَيْسَ مِنْكَ قَلِيلٌ

فَقَدْ كَادَ يَنْفَرِدُ صَاحِبُنَا مِنْ بَيْنِ شُعَرَاءِ الْعَرَبِيَّةِ . وَقَدْ

كَدْنَا نَقُولُ : مِنْ بَيْنِ شُعَرَاءِ الدُّنْيَا ، بِالْإِحَاطَةِ الشَّامِلَةِ لِمَا

يَقْتَنَاوُهُ مِنْ أُمَمَاتِ الْمَعَانِي ، وَهُوَ — كَمَا أَسْلَفْنَا — يَعْرِضُ

لِمَا يَهْدَفُ إِلَيْهِ مِنْ غَرَضٍ فَيَجْلُو فِي كُلِّ مَرَّةٍ صُورًا مِنْهُ

مُخْتَلِفَةً الْأَخْيَلَةِ وَالْأَهْدَافِ ، مُتَبَايِنَةً الدَّرَجَةِ وَالْأَصْدَافِ ،

فَيَخِيلُ إِلَيْكَ أَنَّهُ قَدْ أَوْدَعَ فِي كُلِّ لَوْنٍ مِنَ أَلْوَانِهِ

جَمَاعَ مَا يَدُورُ بِالْخَلْدِ ، أَوْ يَخْطُرُ عَلَى الْبَالِ .

ثُمَّ لَا يَلْبَثُ أَنْ يَعُودَ إِلَى ذَلِكَ الْمَعْنَى مِنْ جَدِيدٍ ، حَتَّى يَرْسُمَ لَكَ مِنْهُ صُورًا جَدِيدَةً وَالْوَحْدَانِ مَبْدَعَةً فَرِيدَةً ، وَهُوَ فِي كُلِّ صُورَةٍ مِنْهَا يَجْلُو آيَتُهُ ، وَيَبْلُغُ غَايَتُهُ .

فَإِذَا بَكَ مَقْتُونٌ مَأْخُودُ اللَّبِّ بِمَا يَدْتَكِرُهُ خَيَالُهُ الْخُصْبُ مِنْ فُنُونِهِ ، وَمَا أَنْشَأَهُ مِنْ سِحْرِ فُتُونِهِ . وَهُوَ فِي تَعْدَادِ صُورِهِ لِلْغَرَضِ الْوَاحِدِ وَتَقْصَى مَعَانِيهِ فِي كُلِّ صُورَةٍ مِنْهَا ، يَكَادُ يَرْجِعُ ابْنُ الرُّومِيِّ وَيَزِيدُ عَلَيْهِ فِي تِلْكَ الْمَرْيَةِ الَّتِي بَهَرْتَنَا وَبَهَرْتَ — مِنْ قَبْلُنَا النَّاقدِ الْبَارِعِ : «ابْنُ خُلْسَانَ» (١) .
كَمَا بَهَرْتَ غَيْرَهُ مِنْ أَسَاطِينِ الْيَمَانِ ، وَحَيَّرْتَهُ كَمَا حَيَّرْتَ غَيْرَهُ مِنْ نَقْدَةِ الشَّعْرِ ، وَقَادَةَ الْفِكْرِ .

وَمَا نَحْسَبُنَا بِحَاجَةٍ إِلَى ضَرْبِ الْأَمْثَالِ لِتَأْيِيدِ مَا نَذْهَبُ إِلَيْهِ ، فَقَدْ مَرَّ بِكَ أَمْثَلَةٌ لَا تُحْصَى فِي دِرَاسَتِنَا لِسَالَةِ الْغُفْرَانِ وَفِيهَا تَقَدَّمَ مِنْ فُصُولِ هَذِهِ الْوَجَازَةِ ، وَسَيَمُرُّ بِكَ فِيهَا تَقَرُّوهُ

(١) قَالَ ابْنُ خُلْسَانَ : « يَغُوصُ عَلَى الْمَعَانِي النَّادِرَةِ ، فَيَسْتَخْرِجُهَا مِنْ مَكَانِهَا ، وَيُبْرِزُهَا فِي أَحْسَنِ صُورَةٍ ، وَلَا يَتْرَكُ الْمَعْنَى حَتَّى يَسْتَوْفِيَهُ إِلَى آخِرَةٍ ، وَلَا يَبْقَى فِيهِ بَقِيَّةٌ » .

— إِنْ شَاءَ اللَّهُ — مِنْ أَجْزَاءِ حَدِيثَةِ أَبِي الْعَلَاءِ ، مَا يُعْنِي عَنْ
 الْإِفَاضَةِ وَالْإِسْهَابِ ، فِي هَذِهِ الْمَوْضِعَاتِ الْعَاجِلَةِ .
 وَيُحْسِبُنَا فِي هَذَا الْمَقَامِ أَنْ نَقْتَصِرَ عَلَى إِشَارَاتٍ سَرِيعَةٍ
 إِلَى بَعْضِ مَا أَبْدَعَتْهُ رِيشَتُهُ مِنْ بَدَائِعِ الصُّورِ حِينَ عَرَضَ
 لِشَخْصَيْنِ مِنْ شُخُوصِ الْقِصَّةِ الَّتِي تَحْمِلُهَا فِي رِسَالَةِ الْهِنَاءِ ،
 وَهُمَا الْفَأْرُ وَالْأَسَدُ ، لِنَزِيدَ الْقَارِئَ بِمَا نَقُولُهُ تَبَيُّنًا وَاقْتِنَاعًا
 إِنْ كَانَ فِي حَاجَةٍ إِلَى الْإِسْتِرَادَةِ مِنَ التَّثَبُّتِ وَالِاقْتِنَاعِ .

٢ — ابن المقفع والجُرْدَانِ

لَقَدْ عَرَضَ شَاعِرُنَا فِي رِسَالَةِ الْهِنَاءِ — كَمَا أَسْلَفْنَا فِي
 الْفَصْلِ السَّابِقِ — إِلَى قِصَّةِ الْفَأْرِ وَالْأَسَدِ ، فَكَمْ شَغَلَهُ
 فِي حَيَاتِهِ الطَّوِيلَةِ التَّفَكُّيرُ فِي الْفَأْرِ مَرَّةً ، وَفِي الْأَسَدِ ثَانِيَةً ،
 وَفِي الْفَأْرِ وَالْأَسَدِ ثَالِثَةً ، وَفِي هَذَيْنِ وَغَيْرِهِمَا مِنْ ضُرُوبِ
 الْحَيَوَانِ رَابِعَةً ، وَهَكَذَا .

وَلَقَدْ نَهَجَ فِي هَاتَيْنِ الْقِصَّتَيْنِ أَغْنَى قِصَّتِي : الْأَسَدِ وَالْفَأْرِ ،
 وَالْبَازِ وَالْعُصْفُورِ — اللَّتَيْنِ تَرَجَّمْنَاهُمَا إِلَى الْأُسْلُوبِ

العَصْرَى نَهَجَ غَيْرِهِ مِنْ أَغْلَامِ الْفَنِّ الْقَصَصِيِّ الَّذِي حَمَلَ
لِوَاءَهُ السَّكَاتِبُ الْقَاصُّ الْمُؤَهَّبُ عَبْدُ اللَّهِ بْنُ الْمُقَفَّعِ، فِي
كِتَابِهِ الْخَالِدِ «كَلِيلَةَ وَدُمْنَةَ». وَلَمْ يَقْتَصِرْ شَاعِرُنَا عَلَى هَذَا
اللَّوْنِ الرَّمَزِيِّ الَّذِي بَرَعَ فِيهِ ابْنُ الْمُقَفَّعِ، وَأَبَى إِلَّا مُنَازَعَتَهُ
فِيهِ — كَمَا نَازَعَ غَيْرُهُ مِنْ فُحُولِ الْبَيَانِ — فَاسْتَوَلَى عَلَى
الْأَمَدِ، وَانْفَرَدَ بِالسَّبْقِ فِي أَكْثَرِ الْمَيَادِينِ الَّتِي جَارَاهُمْ فِي
حَلَبَاتِهَا، وَأَبَى طَبْعُهُ الْمُؤَهَّبُ إِلَّا أَنْ يَبْذُ مُنَافِسِيهِ، فَتَمَّ
لَهُ مَا أَرَادَ وَرَجَحَتْ كِفَّةُ مِيزَانِهِ دِقَّةً وَإِيجَازًا، وَحَقِيقَةً
وَبَجَازًا. فَهُوَ لَمْ يَقِفْ عِنْدَ الْحُدُودِ الْفَنِّيَّةِ الَّتِي قَبَسَهَا
«ابْنُ الْمُقَفَّعِ» مِنْ فُنُونِ الْفُرْسِ وَالْعَرَبِ وَأَسَاطِيرِهِمَا، بَلْ تَعَدَّاهَا
إِلَى فُنُونٍ أُخَرَ مِنَ الرِّوَائِعِ، جَلَا فِيهَا مَا لَا يَخْطُرُ عَلَى بَالٍ،
مِنْ غَرَائِزِ الْحَيَوَانِ وَخَصَائِصِهِ وَأَحَاسِيْسِهِ وَعَجَائِبِ إلهَامِهِ
وَدَقَائِقِ خَوَاطِرِهِ.

فَقَدْ شَبَّهَ «ابْنُ الْمُقَفَّعِ» اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ بِالْجُرْدَيْنِ فِي
كَلِيلَةِ وَدُمْنَةَ: ذَلِكَ السَّفَرُ الْجَلِيلُ الَّذِي مُيزَتْ أَبْوَابُهُ كَمَا يَقُولُ

مُبْدَعُهُ — عَلَى لِسَانِ كَسْرِي أَنْوَشِرْوَان — وَأُثْبِتَتْ عَجَائِبُهُ
عَلَى أَفْوَاهِ الطَّيْرِ وَالْبَهَائِمِ وَالْوَحْشِ وَالسَّبَاعِ وَالْهُوَامِّ وَسَائِرِ
حَشَرَاتِ الْأَرْضِ ، مِمَّا يَحْتَاجُ إِلَيْهِ الْمُلُوكُ فِي سِيَاسَةِ رَعِيَّتِهَا
وِإِقَامَةِ أَوْدِهَا وَإِنصَافِهَا .

« وَتَمَثَّلَ ابْنُ الْمُقَقَّعِ — فِيمَا تَمَثَّلَهُ مِنْ بَدَائِعِ سَفَرِهِ
التَّخْلِيلِيِّ الرَّائِعِ — أَنَّ الْإِنْسَانَ فِي هَذِهِ الدُّنْيَا « أَشْرَفُ
الْخَلْقِ وَأَفْضَلُهُ فِيمَا . ثُمَّ هُوَ — عَلَى مَنْزِلَتِهِ — لَا يَتَقَلَّبُ
إِلَّا فِي شَرٍّ ، وَلَا يُوصَفُ إِلَّا بِهِ » . ثُمَّ قَالَ .

« وَنَظَرْتُ ، فَإِذَا هُوَ لَا يَمْنَعُهُ مِنْ ذَلِكَ إِلَّا لَذَّةُ حَقِيرَةٍ
يَسِيرَةٍ — مِنَ الْمَشْرَبِ ، وَالْمَطْعَمِ ، وَالشَّمِّ ، وَالنَّظَرِ ،
وَالسَّمْعِ ، وَاللَّمْسِ . لَعَلَّهُ يُصِيبُ مِنْهُ طَفِيفًا لَا يُوصَفُ ،
سَرِيعَ انْقِطَاعِهِ وَامْتِحَاقِهِ وَزَوَالِهِ .

فَالْتَمَسْتُ لَهُ مَثَلًا ، فَإِذَا مَثَلُهُ مِثْلُ رَجُلٍ أُلْجَأُ الْخَوْفُ
إِلَى بَيْتٍ تَدَلَّى فِيهَا ، وَتَعَلَّقَ بِغُصْنَيْنِ نَابِتَيْنِ عَلَى شَفْرِهَا
(نَاحِيَتِهَا مِنْ أَعْلَاهَا) . فَوَقَعَ رِجْلَاهُ عَلَى شَيْءٍ عَمْدَهُمَا ،

(أَسْنَدَهُمَا وَقَوَّاهُمَا) ، فَنَظَرَ فَإِذَا هُوَ بِأَرْبَعِ أَفَاعٍ قَدْ أَطْلَعْنَ
رُءُوسَهُنَّ مِنْ أَجْحَرِهِنَّ ، وَنَظَرَ إِلَى أَسْفَلِهَا ، فَإِذَا هُوَ بِثَنَيْنِ
(ثُعْبَانٍ عَظِيمٍ) فَاعْرِفَاهُ نَحْوَهُ .

وَرَفَعَ بَصَرَهُ إِلَى الْغُصْنَيْنِ ، فَإِذَا فِي أُصُرٍ لِهَمَا جُرْدَانٍ :
أَبْيَضٌ وَأَسْوَدٌ ، يَقْرَضَانِهَا دَائِبَيْنِ لَا يَفْتُرَانِ .

فَبَيْنَمَا هُوَ عَلَى ذَلِكَ ، إِهْتَمَّ بِالْحِيلَةِ لِنَفْسِهِ ، إِذْ نَظَرَ
فَإِذَا قَرِيبٌ مِنْهُ كُوَارَةٌ نَحْلٍ ^(١) ، فِيهَا شَيْءٌ مِنْ عَسَلٍ ،
فَقَطَعَهُ مِنْهُ ، وَاشْتَغَلَ بِمَحَلَّاتِهِ عَنِ التَّفَكُّيرِ فِي أَمْرِهِ .

وَنَسِيَ الْحَيَّاتِ الْأَرْبَعَ الَّتِي رَجَلَاهُ عَلَيْهَا . وَلَا يَدْرِي
مَتَى يَتُرَنِّ بِهِ أَوْ إِحْدَاهُنَّ .

وَلَمْ يَذْكُرْ أَنَّ الْجُرْدَيْنِ دَائِبَانِ فِي قَطْعِ الْغُصْنَيْنِ ،
وَأَنَّهُمَا إِذَا قَطَعَا هُمَا وَقَعَ فِي فَمِ الثَّانِي فَهَلَكَ .

(١) كُوَارَةُ النَحْلِ : شَيْءٌ يَتَّخِذُ لِلنَّحْلِ مِنَ الْقَضْبَانِ — أَوْ الطَّيْنِ — ضَيْقَ
الرَّأْسِ ، أَوْ : هِيَ عَسَلُهَا فِي الشَّمْعِ ، أَوْ : هِيَ الْحَلَايَا .

فَلَمْ يَزَلْ لَاهِيًا سَاهِيًا حَتَّى هَلَكَ .
وَهُنَا يَفْسِّرُ رُمُوزَهُ فَيَقُولُ :

فَشَبَّهَتْ الْبَيْتَ بِالْدُّنْيَا الْمَمْلُوءَةِ آفَاتٍ وَشُرُورًا وَمَخَافٍ
وَمُتَالِفٍ .

«وَشَبَّهَتْ الْحَيَاتِ الْأَرْبَعَ بِالْأَخْلَاطِ الْأَرْبَعَةِ الَّتِي تَعَمَّدَتْ
الْإِنْسَانَ ، وَمَتَى يَهِيْجُ مِنْهَا شَيْءٌ فَهُوَ كَالْحَمَةِ مِنَ الْأَفْعَى
وَالسُّمِّ الْمُمِيتِ .

وَشَبَّهَتْ الْغُصْنَيْنِ بِالْحَيَاةِ .
وَشَبَّهَتْ الْجُرْذَيْنِ بِاللَّيْلِ وَالنَّهَارِ ، وَقَرَضَهُمَا دَاثِمُهُمَا فِي
إِنْفَادِ الْأَجَالِ الَّتِي هِيَ خُصُوعُ الْحَيَاةِ .

وَشَبَّهَتْ التَّيْنِ بِالْمَوْتِ الَّذِي لَا بُدَّ مِنْهُ .
وَالْعَسَلُ هَذِهِ الْحَلَاوَةُ الْقَلِيلَةُ الَّتِي يُصِيبُهَا الْإِنْسَانُ
فَتَشْغَلُهُ عَنْ نَفْسِهِ ، وَتُلْهِمُهُ عَنِ التَّحِيلِ خِلَاصِهِ ، وَتَصْدَهُ
عَنْ سَبِيلِ نَجَاتِهِ .

فَانْبَرَى شَاعِرُنَا يُنَاقِشُ هَذِهِ الصُّورَةَ الْفَنِيَّةَ عَلَى عَادَتِهِ

فِي مُنَاقَشَةِ الْفُحُولِ مِنَ الْكُتَابِ وَالشُّعْرَاءِ وَمُنَاقَضَتِهِمْ ،
وَأَقْبَلَ يُنْكَرُ عَلَيْهِ فِي دُعَابَةِ مُسْتَمْلَحَةٍ رَائِعَةٍ — تَشْبِيهِ
الَّيْلِ وَالنَّهَارِ بِالْفَارِثَيْنِ الضَّعِيفَيْنِ ، مُؤَثِّرًا تَمْثِيلَهُمَا ،
بِالْأَسَدَيْنِ الْمُفْتَرَسَيْنِ ، فَهُوَ يَقُولُ :

« وَمَا بَرَّ مَنْ سَاوَاهُمَا فِي قِيَاسِهِ

بِبِرِّي عُقُوقٍ ، بَلْ هُمَا سَبْعَانِ »

ثُمَّ يَعْرِضُ لَنَا هَذِهِ الصُّورَةَ فِي لَوْحٍ ثَانٍ ، فَيَقُولُ :

وَجَدْنَا ذَاهِبَ الْفَتَيَيْنِ أَفْنَى

مُلُوكِ الْأَرْضِ مِنْ عَرَبٍ وَفُرْسٍ

وَمَا الْبِرَّانِ مِثْلَهُمَا ، وَإِكُنْ

هُمَا الْأَسَدَانِ يَبْتَغِيَانِ فَرَسِي

ثُمَّ يَعْرِضُهَا فِي لَوْحٍ ثَالِثٍ فَيَقُولُ :

« أَسَدَانِ يَفْتَرِسَانِ مَنْ مَرَّ بِهِ ، فَأَبَهُ لِدَلِكْ »

وَرُبَّمَا تَمَثَّلَ الْمَوْتُ بَازِيًا أَوْ أَسَدًا ، وَتَمَثَّلْنَا حَمَامًا يَأْكُلُهَا

الْبَازِي وَفَرَائِسُ يَبْطِشُ بِهَا الْأَسَدُ ، فَقَالَ :

« وَالْمَوْتُ بَازٍ وَالنُّفُوسُ حَمَامٌ »

وَهَزَبَ رُءُوسَ عَرِيْسٍ ، وَنَحْنُ فَرَائِسُ »

وَالْمَعْرَى — كَمَا يَعْرِفُهُ رُوَادُ أَدَبِهِ — شَدِيدُ الْوَلَعِ

بِمُنَاقَضَتِهِ الْكِتَابَ وَالشُّعْرَاءَ ، وَالْإِفْتِنَانِ فِي مُدَاعَبَتِهِمْ

وَمُعَارَضَةِ أَقْوَالِهِمْ ، وَفِي رِسَالَةِ الْغُفْرَانِ أَمثلةٌ لَا تُحْصَى

عَلَى ذَلِكَ .

وَهُوَ لَا يَفْتَأُ فِي جُمْهُورِ نَثَرِهِ وَنَظْمِهِ يُنَاقِشُهُمْ وَيُنَكِّتُ

عَلَيْهِمْ مَرَّةً ، وَيَسْخَرُ مِنْ هِنَوَاتِهِمْ ثَانِيَةً ، وَيُنَدِّدُ بِسَقَطَاتِهِمْ

ثَالِثَةً ، وَيُشِيدُ بِجَسَنَاتِهِمْ رَابِعَةً .

٣ — بَيْنَ الْمَعْرَى وَالْبُحْتَرَى

وَمِنْ بَدَائِعِ نَوَادِرِهِ فِي هَذَا الْبَابِ تِلْكَ الْمُعَاتَبَةُ

الظَّرِيفَةُ الَّتِي عَرَضَ فِيهَا لِمُنَاقَضَةِ « الْوَلِيدِ ، أَبِي عُبَادَةَ

الْبُحْتَرَى » فِي قَوْلِهِ ، طَائِبًا عَلَى « بَغْدَادِ » ، شَاكِيًا جَوْرَهَا .

« مَا أَنْصَفْتَ « بَغْدَادُ » حِينَ تَوَحَّشْتَ

لِنَزِيلِهَا ، وَهِيَ الْمَحَلُّ الْآنِسُ »

فَيَنْبَرِي شَاعِرُنَا — فِي « سَقَطِ الزَّئِدِ » ، اِمْنَاقَضَتِهِ
وَالرَّدِّ عَلَيْهِ فيقول :

ذَمَّ « الْوَلِيدُ » — وَلَمْ أَذْمُ — جِوَارَ كُمْ ،
فَقَالَ : « مَا أَنْصَفْتَ بَعْدَادُ » ، حُوشَيْتَا
فَإِنْ لَقِيتُ « وَلِيداً » وَالنَّوَى قَذَفُ^(١)
يَوْمَ الْقِيَامَةِ ، لَمْ أُعْذِمُهُ تَبْكَيْتَا

٤ — ثمر النبع

وَقَالَ الْوَلِيدُ الْبُخْتَرِيُّ أَبْنَضًا :
« وَعَيَّرْتَنِي خِلَالَ الْعُذْمِ آوَنَةً
وَالنَّبْعُ عُرْيَانُ ، مَا فِي عُوْدِهِ ثَمَرٌ »
فَمَا كَادَ يَتَلَقَّفُ مِنْهُ ذَلِكَ التَّشْبِيهَ ، حَتَّى رَاحَ يُخَطِّئُهُ^{مُ}
فِيمَا ذَهَبَ إِلَيْهِ ، وَيَفْتِنْدُ رَأْيَهُ مُدَاعِبًا ، وَيَقُولُ مُعَابِثًا :
« وَقَالَ الْوَلِيدُ : « النَّبْعُ لَيْسَ بِثَمَرٍ »
وَأَخْطَأَ ، سَرَبُ الْوَحْشِ مِنْ ثَمَرِ النَّبْعِ »

وَلَوْ شِئْنَا أَنْ نَقِفَ عِنْدَ هَذِهِ الْكَلِمَةِ ، أَعْنَى كَلِمَةِ النَّبْعِ ،
وَنَتَرَيَّتْ شَيْئًا ، قَبْلَ أَنْ نَذْتَقِلَ إِلَى سِيَاقِ هَذَا الْفَصْلِ ،
لَرَأَيْنَا مِنْ إِبْدَاعِهِ فِيهَا ، طُرْفًا وَفُثُونًا .

فَهُوَ يَقُولُ فِي بَعْضِ فُصُولِهِ :

« وَيَطُوفُ الْعَفْوُ [الْجَحْشُ] بِالنَّبْعَةِ [وَهِيَ شَجَرَةٌ
يَتَّخِذُ مِنْهَا الْقَسِيُّ] وَكَيْفَ لَهُ بِاجْتِنَاثِ أَصْلِهَا ، وَهُوَ لَا يَفْرُقُ
بَيْنَهَا ، وَبَيْنَ شَجَرَةِ الضَّرْوِ (١) »

وَيَقُولُ فِي فَصْلِ آخَرَ :

« لَيْسَ مَنَابِتُ النَّبْعِ فِي الْبَطْحَاءِ .

ثُمَّ يَشْرَحُهَا فَيَقُولُ : النَّبْعُ يَنْبُتُ فِي رُمُوسِ الْجِبَالِ ،
فَإِذَا نَبَتَ فِي السُّفُوحِ وَالْحُضِيِّضِ فَهُوَ : الشَّوْحَطُ ، فَإِذَا
نَبَتَ فِي السُّهُولِ ، فَهُوَ الشَّرْيَانُ ، وَمِنْ كُلِّ أَصْنَافِهِ يُتَّخَذُ
الْقَسِيُّ الْعَرَبِيَّةُ .

ثُمَّ يَعْرِضُ لِشَجَرَةِ الضَّئَالِ ، وَهِيَ لِشَجَرَةِ النَّبْعِ صِنْفٌ ، فَيَقُولُ :

(١) هِيَ الْحَبَّةُ الْخَضْرَاءُ ، أَوْ شَجَرُهَا ، وَثَمَرُهُ مَسْخَنٌ يَدْرُ .

لَوْ عَلِمْتَ الضَّالَّةُ أَنَّ الصَّائِدَ يَبْتَرِي مِنْهَا قَوْسًا يَذْعُرُ
بِهَا الْوَحْشَ الْأَمِنَاتِ ، لَأَظْهَرْتَ مِنْ ذَلِكَ وَجُومًا^(١) .

فَإِذَا تَرَكَنَا الْمُقَابَلَةَ بَيْنَهُ وَبَيْنَ ابْنِ الْمُقَفَّعِ رَأَيْنَا شَاعِرَنَا
يَذْهَبُ فِي الْحَدِيثِ عَنِ الْحَيَوَانِ مَذَاهِبَ فَنِيَّةٍ أُخْرَى مُبْدَعَةً
لَمْ يَكُنْ يَسْبِقُهُ إِلَيْهَا سَابِقٌ ، مُتَعَصِّبًا لِلْفَأْرِ مُتَحَمِّسًا لَهُ ،
مُؤَثِّرًا حَيَاتَهُ عَلَى حَيَاةِ قَاتِلِهِ ، مُعْلِنًا غَضَبَهُ عَلَى الْأَسَدِ
لِتَعْرِضِهِ لَهُ بِالْأَذَى وَالْفِتْكَ ، وَمُتَّخِذًا مِنْ ذَلِكَ رَمْزًا
لِبَطْشِ الْقَوَى بِالضَّعِيفِ ، كَمَا تَرَى فِي قَوْلِهِ :

مَوْتُ أَسَامَةِ (الْأَسَدِ) أَحْسَنُ بِهِ مِنْ افْتِرَاسِ
الْبَرِّ (الْفَأْرِ) .

٥ — فَأُتَانِ

وَرُبَّمَا جَرَى عَلَى عَادَتِهِ فِي الدُّعَابَةِ اللَّفْظِيَّةِ وَالْمُقَابَلَاتِ

(١) وقريب من هذا قوله :

لو كانت الصليانة ذات حياة ، لأرعدت من شجيج العير ، وسمعت صوت
الراعدة فلم تبال .

الْكَلَامِيَّةُ ، بَيْنَ الْفَارَةِ الَّتِي تَسْكُنُ الدَّارَ فَتَعِثُ فِيهَا
فَسَادًا ، وَبَيْنَ فَارَةِ الْمِسْكِ الَّتِي تُجْتَابُ مِنْ « دَارَيْنِ » ،
وَكَلَّتَاهُمَا فَارَةُ دَارِيَّةٌ ، إِحْدَاهُمَا مَنَسُوبَةٌ إِلَى الدَّارِ ، وَالْأُخْرَى
مَنَسُوبَةٌ إِلَى « دَارَيْنِ » ، فَيَقُولُ :

فِي الدُّنْيَا فَارَتَانِ ، دَارِيتَانِ :
إِحْدَاهُمَا فِي دَارِكِ مُجْتَلِبَةٍ (خَادِعَةٌ) ،
وَالْأُخْرَى مِنْ « دَارَيْنِ » مُجْتَلِبَةٌ .
تِلْكَ لِلْأَطْعِمَةِ مُطِيبَةٌ ، وَهَذِهِ لَهَا مُفْسِدَةٌ .
أَوْ يَقُولُ :

كَمْ قَتَلُوا عَاتِقًا ^(١) ، وَكَمْ جَرَحُوا
دَنَّا ، وَكَمْ فَارِ تَاجِرٍ ذَبَحُوا

٦ - قصة الجنِّ

وَنَرَاهُ يَتِمَثَّلُ الْجَنِّيَّ « أَبَاهُ دَرَشَ » فِي رِسَالَةِ الْغُفْرَانِ

(١) العاتق : الزق الواسع ، الذي طابت رائحته لعنقه ، وفرخ الطائر لما إذا
طار واستقل .

وَهُوَ يُحَدِّثُ صَاحِبَهُ فِي جَنَّةِ الْعَفَّارِيتِ كَيْفَ تَحَوَّلَ فَأَرَأَى،
فَيَقُولُ :

« دَخَلْتُ مَرَّةً دَارَ أَنَاسٍ أَرِيدُ أَنْ أَصْرَعَ فَتَاةً لَهُمْ ،
فَتَصَوَّرْتُ فِي صُورَةِ عَضَلٍ (جُرْذِ) فَدَعَا لِي الضَّيَّانَ
(الْقَطَطَ) ، فَلَمَّا أَرَهَقْتَنِي تَحَوَّلَتْ صِلًا أَرْقَمَ ، وَدَخَلْتُ فِي
قَطِيطٍ هُنَاكَ (وَالْقَطِيطُ جَذْعُ الشَّجَرَةِ يُقَطَّعُ وَيُلْقَى) .
فَلَمَّا عَلِمُوا ذَلِكَ كَشَفُوهُ عَنِّي ، فَلَمَّا خِفْتُ الْقَتْلَ صِرْتُ
رِيحًا هَفَّافَةً ، فَلَحِقْتُ بِالرَّوَافِدِ (خَشَبِ السَّقْفِ) .

وَنَفَضُوا تِلْكَ الْخَشَبَ وَالْأَجْذَالَ (أُصُولَ الشَّجَرِ
بَعْدَ ذَهَابِ الْفُرُوعِ) فَلَمْ يَرَوْا شَيْئًا فَجَعَلُوا يَتَفَكَّهُونَ
(يَتَعَجَّبُونَ) وَيَقُولُونَ :

لَيْسَ هَا هُنَا مَكَانٌ يُمَكِّنُ أَنْ يَسْتَتِرَ فِيهِ
فَيَعْنَمَاهُمْ يَتَذَكَّرُونَ ذَلِكَ عَمَدَتُ إِكْعَابِهِمْ (جَارِيَتِهِمْ
النَّاهِدِ) فِي الْكَلَّةِ ^(١) (السُّتْرِ الرَّفِيقِ) .

فَلَمَّا رَأَيْتَنِي أَصَابَهَا الصَّرْعُ ، وَاجْتَمَعَ أَهْلُهَا مِنْ كُلِّ

(١) وَهُوَ مَا يُسَمَّى (النَامُوسِيَّة) .

أَوْبٍ وَجَمَعُوا لَهَا الرُّقَاةَ ، وَجَاءُوا بِالْأَطْبَةِ ، وَبَذَلُوا
 الْمُنْفَسَاتِ ، فَاتَرَكَ رَاقٍ رُقِيَّةً إِلَّا عَرْضَهَا عَلَىَّ وَأَنَا لَا أُجِيبُ .
 وَغَبَرَتِ الْأَسَاةُ (الْأَطْبَاءُ) تَسْقِيهَا الْأَشْفِيَّةُ (الْأَذْوِيَّةُ) ،
 وَأَنَا سَدِكُ بَيْهَا لَا أَزُولُ (مُلَازِمٌ لَهَا لَا أَفَارِقُهَا) .
 فَلَمَّا أَصَابَهَا الْحَمَامُ (الْمَوْتُ) طَلَبْتُ لِي سِوَاهَا صَاحِبَةً ،
 ثُمَّ كَذَلِكَ حَتَّى رَزَقَ اللَّهُ الْإِنَابَةَ ، وَأَثَابَ الْجَزِيلَ ،
 فَلَا أَفْتَأُ لَهُ مِنَ الْحَامِدِينَ .

٧ — الْأَسَدُ وَالْقَطْ

وَلَا يَفُوتُهُ أَنْ يُنْبَهَ إِلَى تَبَايُنِ الصِّفَاتِ وَاخْتِلَافِ
 السَّجَايَا وَالْعَادَاتِ ، فَيَقْرَرَنَّ أَنَّ الْأَسَدَ لَا يَصِيدُ الْأَسَدَ ، وَأَنَّ
 الْقَطَّ — عَلَى هَوَانِ شَأْنِهِ — يُعَدُّ سَبْعًا بَاطِشًا غَلَابًا إِذَا
 قِيسَ إِلَى الْفَأْرِ ، فَيَقُولُ :

وَالسَّجَايَا شَتَّى ، فَلَا يَقْنِصُ اللَّيْلُ

ثُ هِزْبَرًا ، وَالْهَرُّ لِلْفَأْرِ سَبْعُ

وَهُوَ فِي هَذَا يُؤَيِّدُ قَوْلَهُ :

يُسْتَصْغَرُ الْحَىُّ الْحَقِيرُ ، وَتَحْتَهُ
أُمَمٌ تَوَهُّمُ أَنَّهُ جَبَّارٌ

وَيُلِمُّ بِهِ فِي صُورَةٍ أُخْرَى فَيَقُولُ :

يَا فَاسِقًا يَتَرَاءَى أَنَّهُ مَلِكٌ

وَفَارَةٌ عِنْدَ قَوْمٍ أَنَّهَا سَمِعُ

وَرُبَّمَا قَالَ مُتَحَدِّثًا عَنْ نَكَبَاتِ الْأَيَّامِ وَكَيْفَ تُعْجِزُ

الْأَسْوَدَ فَتَسْلُبُهَا قُوَاهَا وَتَرُدُّهَا مِثْلَ الْقِطَاطِ ، فَيَقُولُ :

وَلَا تَأْمَنَنَّ الْحَادِثَاتِ ، فَإِنَّهَا

تَرُدُّ لِيُوثَ الْغَابِ مِثْلَ الضِّيَاوِ

وَهُوَ يَتَّخِذُ عَلَى عَادَةِ الْكِتَابِ وَالشُّعْرَاءِ مِنَ الْفَأْرِ

رَمْزًا لِلضَّعْفِ ، فَيَقُولُ مُنْذِرًا بِخَطَايَا مَنْ يَتَجَاوَزُ قُوَّتَهُ

وَيَتَخَطَّى قُدْرَتَهُ ، مُسْتَدِلًّا عَلَى ذَلِكَ بِضَعْفِ وَلَدِ الْبَقَرَةِ

الْوَحْشِيَّةِ بِالْقِيَاسِ إِلَى الذَّنْبِ ، وَضَعْفِ الْفَأْرِ بِالْقِيَاسِ إِلَى

الْهَرِّ ، فَيَقُولُ :

وَكَمْ مُصَابِرَةُ الذَّرْعِ (وَلَدِ الْبَقَرَةِ الْوَحْشِيَّةِ^(١)) لَا بَسَ

(١) يعنى أن ولد البقرة الوحشية يعجز عن مقاومة الذئب ولا يلبث أن يقع فريسة له .

الدَّرْعِ (الدُّبِّ) ، وَالْبِرِّ (الفَّارَةِ) الْهَرِّ .

٨ - سطوة الأسد

فَإِذَا انْتَقَلْنَا مَعَ شَيْخِنَا الْجَلِيلِ مِنْ عَالَمِ الْفَارِ إِلَى
عَالَمِ الْأَسَدِ ، رَأَيْنَا فُنُونًا مِنْ بَدَائِعِهِ وَأَلْوَانًا مِنْ رَوَائِعِهِ .
عَلَى أَنَّهُ فِي جُمُهورِ أَدَبِهِ لَا يَأْلُو جُهْدًا فِي إِظْهَارِ سُخْطِهِ
عَلَى الْأَسْوَدِ ، وَإِعْلَانِ غَيْظِهِ مِنْ تَحْكُمِهَا فِي الْأَبْقَارِ
الْوَحْشِيَّةِ وَغَيْرِهَا ، فَيَقُولُ :

بَأَى جُرْمٍ ، وَأَيَّ حُكْمٍ سَطَّ لَيْثٌ عَلَى مَهَاها ؟
وَرُبَّمَا التَّمَسَّ عُذْرًا لِلضَّوَارِي فِي فَتْكِهَا بِفَرَائِيسِهَا
فَقَالَ :

وَلَوْ لَا حَاجَةٌ فِي الدُّبِّ تَدْعُو

لِصَيْدِ الْوَحْشِ ، مَا اقْتَبَضَ الْغَزَالَ
وَرُبَّمَا عَلَّلَ نَفْسَهُ بِالْمُحَالِ ، وَتَمَنَّى مَا لَا سَبِيلَ إِلَى
بُلُوغِهِ مِنَ الْأَمَانِيِّ وَالْأَمَالِ ، فَقَالَ :

أَيَكُونُ دَفْعٌ لِلشُّرُورِ فَيَنْتَهِي
غَاوٍ ، وَيَقْنَعُ بِالنَّبَاتِ الضَّيِّعِ

وَلَكِنَّهُ لَا يَلْبَثُ أَنْ يَسْتَدْرِكَ مَا فَرَطَ مِنْهُ ، وَيَعُودُ
إِلَى عَالَمِ الْحَقَائِقِ ، سَائِلًا : كَيْفَ يَتَسَيَّ ذَلِكَ وَقَدْ رُكِبَتْ
أَظْفَارُهَا لِلْفَرَسِ ؟

« وَمَا جُعِلَتْ لِأَسْوَدِ الْعَرَبِينَ أَظْفَارُ ، إِلَّا ابْتِغَاءَ الظَّفَرِ »

وَقَدْ جَرَتْ مَشِيئَةُ الْخَالِقِ أَنْ يَمْنَحَهَا مِنَ الْأَظْفَارِ
وَالْأَنْيَابِ ، مَا يَهَيِّئُ لَهَا الْفَتْكَ بِفَرَائِيسِهَا :

وَلَوْ لَمْ يُقَدَّرْ خَالِقُ اللَّيْثِ فَرَسُهُ

لِمَطْعَمِهِ ، لَمْ يُعْطِهِ النَّابَ وَالظَّفَرَ

وَهَلْ سَادَ الْأَسَدُ وَهَيْمَنَ عَلَى غَيْرِهِ مِنْ ضُرُوبِ

الْحَيَوَانِ بِغَيْرِ نَابِهِ وَظَفَرِهِ :

« أَلَيْسَ هِزْبُ الْغَابِ - وَهُوَ مَمْلُوكٌ

عَلَى الْوَحْشِ - يَبْغِي الصَّيْدَ بِالنَّابِ وَالظَّفَرِ ؟ »

وَلَوْ شَاءَ خَالِقُهُ لَأَعْمَى عَيْنَيْهِ ، فَكَفَّ بِذَلِكَ أَذَاهُ

وَشَرَّهُ عَنْ أَسْرَابِ الضَّأْنِ الْأَمْنَةِ فِي مَرَاتِعِهَا :

وَلَوْ ذَهَبَتْ عَيْنَا هَزْبٍ مُسَاوِرٍ ^(١)

لَمَارَاعِ ضَانًا - فِي الْمَرَاتِعِ - أَوْ سِرْبَا
عَلَى أَنَّ الْقَضَاءَ يَأْتِي لِأَظْفَارِ اللَّيْثِ الْفَاتِكَةِ الْبَاطِشَةِ
إِلَّا أَنْ تَطُولَ ، يَبْدَأُ تَجْرِي عَادَةُ الْإِنْسَانِ بِتَقْلِيمِ أَظْفَارِهِمْ ،
عَلَى عَجْزِهَا عَنِ الضَّرَرِ ، إِذَا قِيسَتْ إِلَى أَظْفَارِ الْأَسْوَدِ :
أَرَأَيْتَ أَظْفَارَ الضَّرَاغِمِ عُوْدَتْ

فِرَّةً ^(٢) ، وَأَظْفَارَ الْإِنْسَانِ تُقْلَمُ ^(٣)

وَلَوْ شَاءَ الْقَضَاءُ لَقْلَمَ أَظْفَارَهَا ، كَمَا يُقْلَمُهَا الْمَوْتُ
الَّذِي يَطْوِي كُلَّ شَيْءٍ :

وَجَدْتُ يَدَ الْوَهَّابِ تُطْوِي ، وَعَيْنُهُ

تُكَفُّ ، وَأَظْفَارَ اللَّيْثِ تُقْلَمُ

وَلَوْ شَاءَ لِأَجْمِ الْأَسْوَدِ وَالْوَحُوشِ فَكَفَّ أَذَاهَا عَنِ

النَّاسِ ، فَمَا يُعْجِزُ قُدْرَةَ اللَّهِ شَيْءٌ مِمَّا عَظُمَ :

(١) مساوِر : موائب غلاب باطش

(٢) فِرَّة أي : وفرة يعني أنها تامة كاملة لا يقصها أحد

(٣) قلمت الظفر : أخذت ما طال منه .

« وَبِالْقَضَاءِ لَأَسَادِ الشَّرِّى لُجْمٌ »

وَلِلْوَحُوشِ - بِإِذْنِ اللَّهِ - أَرْسَانُ »

وَلَا غَرَوْ فِي ذَلِكَ فَلَأَسُودُ عَاجِزَةٌ أَمَامَ الْقَضَاءِ ،

كَمَا تَعْجِزُ الْأَرَانِبُ سُوءًا بِسُوءٍ :

قَدْ أَرَانِي الْقِيَاسُ أَنَّ لِيُوتَ الْ-

غَابِ - فِيمَا يَنْوُبُ - مِثْلَ الْأَرَانِي^(١)

وَقَدْ مَرَّ بِكَ ذَلِكَ الْبَيْتُ الرَّائِعُ الَّذِي خَتَمْنَا بِهِ

الْفَصْلَ الثَّانِي وَهُوَ قَوْلُهُ يُصِفُ كَيْفَ عَصَفَ الْقَضَاءُ

بِإِسَارِكِنِي الْغَائِبِينَ مِنْ أُسُودٍ وَأَرَانِبٍ :

سَلَا « غَابَ تَرَجٍ » وَ « الْأُتَيْعِمِ » : كَمْ ثَوَى

- بِذَاكَ وَهَذَا - مِنْ أُسُودٍ وَخِزَّانٍ

وَأَيُّ عَجَبٍ فِي ذَلِكَ ، وَكُلُّ مَا فِي الْوُجُودِ هَالِكٌ :

(١) تقول في جمع أرنب : أرناب وأراني ، كما تقول في جمع ضفدع ضفادع

وَالظَّيْرُ ، وَالْوَحْشُ : غَادِيهَا وَرَائِهَا

وَاللَيْثُ وَالشَّيْبُ وَالذِّيَالُ وَالذَّرْعُ^(١)

وَهُوَ فِي الْبَيْتِ التَّالِي يَرْسُمُ أَوْحًا مُخْتَصَرًا يُصَوِّرُ

الْقَضَاءُ وَهُوَ يَعْصِفُ بِكُلِّ مَنْ يُصَادِفُهُ مِنْ ظَنِي وَأَسَدٍ ،

غَيْرَ مُفَرَّقٍ بَيْنَ وَالِدٍ مِنْهَا وَمَا وَلَدَ :

يُصَادِفُ الظَّنِّيَّ وَابْنُ الظَّنِّيِّ قَاضِيَةٌ

مِنْ حَتْفِهِ ، وَكَذَاكَ الشَّيْبُ وَالْأَسَدُ

وَمِنْ طَرَائِفِهِ اللَّفْظِيَّةِ الْمُسْتَمْلَحَةِ فِي هَذَا الْبَابِ قَوْلُهُ

يَصِفُ عَادِيَاتِ الْأَيَّامِ :

أَعَادَتْ أَسَدَهَا أَسَدًا أَكِيلاً وَأَوْدَى ذَنْبَهَا بِأَبِي ذُوَيْبٍ^(٢)

ثُمَّ يُمَثِّلُ لَكَ فِي الْبَيْتِ التَّالِي كَيْفَ تَلْقَى الْأَسُودُ

مِصَارِعَهَا بَعْدَ طُولِ اقْتِرَاسِهَا فَيَقُولُ :

لَقَدْ فَرَسَتْ تِلْكَ الْأَسُودُ طَوَائِفًا :

أُنَيْسًا ، وَوَحْشًا ، ثُمَّ أَذَرَ كَهَا الْفَرَسُ

(١) الذرع ولد البقره الوحشية .

(٢) وقريب من هذا قوله : متلاعبا بالألفاظ : « واسأل الأسد كم في تحته

من أسد » .

أَوْ يَقُولُ :

يُنْشَرُّ فِي الدُّنْيَا حَدِيثٌ ، وَيَنْطَوِي

وَتُفْرَسُ آسَادُ الْعَرِينِ ، وَتُفْرَسُ

أَوْ يَقُولُ :

كَمْ أَبْنٌ ^(١) الْغَابِ مِنْ أَسَدٍ

أَيُّ لَيْتٍ لَيْسَ يُفْتَرَسُ ؟

ثُمَّ يَصِفُ مَا تَلْقَاهُ الْأَسُودُ مِنْ صُرُوفِ الْأَيَّامِ وَحُتُومِ
الْقَضَاءِ الَّذِي لَا يَرْحَمُ أَرْنبًا ، وَلَا يَخَافُ أَسَدًا ، فَيَقُولُ :

شَكَا خُرْزُ ^(٢) حَوَادِثَهَا وَلَيْتَ

فَمَا رَحِمَ الزَّئِيرَ ، وَلَا الضَّغِيْبَا ^(٣)

ثُمَّ يَبْدِعُ فِي وَصْفِ شَبَكَةِ الْمَوْتِ الَّتِي لَا يُفْلِتُ مِنْهَا
ظَنِيٌّ وَلَا أَسَدٌ ، فَيَقُولُ :

حِبَالَةٌ لَا يُرْجَى الظَّنِيُّ مُخْلَصَةً

مِنْهَا ، وَأَنْتَى إِذَا لَيْتَ الشَّرَى حُبَالًا

(١) بن بالمكان وأين به : سكنه وأقام فيه .

(٢) خُرْزُ أَي : أَرْنَب . (٣) الضَّغِيْبُ : صوت الأرنب

فِيذْكُرْنَا بِقَوْلِهِ فِي صَبَاهُ :

وَكَيْفَ تَنَامُ الطَّيْرُ فِي وَكُنَّاتِهَا

وَقَدْ نُصِبَتْ لِلْفَرْقَدَيْنِ الْحَبَائِلُ

وَقَوْلُهُ فِي كَهُولَتِهِ :

وَجَرَى الْحَتْفُ بِالْقَضَاءِ فَمَا يَسْ

لَمْ لَيْتَ وَلَا غَزَالَ رَيْبُ

وَقَوْلُهُ :

سَوَاءٌ عَلَى هَذَا الْحِمَامِ : أَضْيَغَمًا

أَذَادَ الْمَنَآيَا ، أَمْ تَوَقَّى بِهَا دِرْصًا^(١)

وَمِنْ لَفْتَاتِهِ الذَّهْنِيَّةِ قَوْلُهُ :

يَجْرَى الْقَضَاءُ ، فَيَهْدِي الْعَيْسَ كَارِهَةً

إِلَى الضَّرَاعِمِ ، فِي الْأَقْيَادِ وَالْعُقُلِ^(٢)

(١) فَأَرَأَى . (٢) الْأَقْيَادُ : جَمْعُ قَيْدٍ ، وَالْعُقُلُ مَا يَعْقِلُ بِهِ كَالْقَيْدِ أَوِ الْعُقَالِ وَهُوَ الْحَبْلُ الَّذِي يَعْتَقِلُ بِهِ الْبَعِيرُ ، أَوْ يَنْثِي وَظِيفُهُ مَعَ ذِرَاعِهِ وَيَشْدَانُ مَعًا بِالْعُقَالِ فِي وَسْطِ الذَّرَاعِ ، وَقَدْ يَفْعَلُ بِهِ ذَلِكَ وَهُوَ قَائِمٌ أَوْ بَعْدَ إِنْآخَتِهِ ، يَعْنِي أَنَّ الْقَضَاءَ يَسُوقُهَا مَقِيدَةً لَتَقْرُسَهَا الْأَسْوَدُ .

وَقَوْلُهُ :

وَمَا تَبْقَى الْأَرَاقِمُ فِي حِمَاهَا
وَلَا الْأَسَدُ الضَّرَاعِمُ فِي شَرَاهَا

وَقَوْلُهُ :

وَالْمَوْتُ يَعْذُو عَلَى الْأَسَادِ مُخْدَرَةً^(١)
وَالْعَيْنِ^(٢) يَبْنُ خُزَامَاهَا وَأَرْطَاهَا^(٣)

وَقَوْلُهُ :

وَأَعْجَبُ لِلْهَرَّارِ^(٤) سُمِّيَ ضَيْغَمًا
وَالْمَعِيرِ يُدْعَى بِالْجَوَادِ الْمُطَهَّمِ
أَوْ يَقُولُ :

أَيَعْلَمُ اللَّيْثُ لَمَّا رَاحَ مُفْتَرِسًا
بَأَنَّهُ - عَنْ قَرِيبٍ - سَوْفَ يُفْتَرَسُ^(٥)

-
- (١) لازمة خدرها ، مستترة في عربنها (٢) البقر من الوحش .
(٣) الخزاي : نبات طيب الزهر ، والأرطى : شجر نوره كنور الخلاف
ومره كالغتاب . (٤) الهرار : الكلب إذا كشر عن أنيابه .
(٥) وعند شاعرنا أن مصارع العطاء كمصارع الحقراء :
وتهلك أعيان الرجال وإنما مصارع أعيان ، كمصارع أعيان
وقريب من هذا قوله :
وهل أجل عظيم من رجالهم إذا تأملت إلا ما عر ذبحا

أَوْ يَقُولُ :

وَإِنْ رَأَيْتَ هَزَبَ الْغَابِ مُفْتَرَسًا
فَقَدْ يَكُونُ زَمَانٌ وَهُوَ فَرَّاسٌ !

٩ — أَسَدُ النُّجُومِ

وَكَثِيرًا مَا يَسْبَحُ بِهِ خَيْالُهُ الْوُثَابُ فَيَقَابِلُ بَيْنَ الْأَسَدِ
الضَّارِي فِي الْعَالَمِ الْهَلَاوِي ، وَالْأَسَدِ الْكَوْكَبِيِّ فِي الْعَالَمِ
الْعَالِي ، فَيَقُولُ :

فَمِنْ أَسَدٍ يُعَدُّ مِنَ الضَّوَارِي
وَمِنْ أَسَدٍ يُعَدُّ مِنَ النُّجُومِ

أَوْ يَقُولُ :

لَوْ عُدَّتْ مِنْ أَسَدِ النُّجُومِ بِجَبْهَةٍ

أَوْ بَتَّ فِي ذَنْبٍ لِشَبُوقِ سَائِلٍ
أَوْ يَقُولُ فِي هَذِهِ الرِّسَالَةِ مُتَّحِدًا عَنْ شِبْلِ الدَّوْلَةِ ،
وَمُشِيرًا إِلَى الَّذِينَ كَانُوا أَوَّلَ بَاعِثٍ لَهُ عَلَى كِتَابَةِ هَذِهِ الرِّسَالَةِ :
وَسَيِّدَانَا الْأَسْتَاذَانِ - أَذَلَّ اللَّهُ مُعَانِدَهُمَا أُخْرَى الْمُنُونِ -

إِذَا كَانَ شِبْلُ الدَّوْلَةِ أَسَدَ النُّجُومِ كَانَا لَا مُحَالَةَ ذِرَاعِيهِ ، وَإِنْ
أَغْلَقَ بَابَ الرَّأْفَةِ فَتَحَا مِصْرَاعِيهِ . أَوْ يَقُولُ فِي فُصُولِهِ :
« اللَّهُ أَكْبَرُ ... حَتَّى يَقَعَ الْأَسَدُ وَذِرَاعَاهُ وَجَبْهَتُهُ
وَسَائِرُ كَوَاكِبِهِ ، فَيَكُونُ لَيْشًا فِي الْغَابِ ، يَطْلُبُ لِشِبْلِيهِ
لُحُومَ الرَّجَالِ » .

وَمِنْ بَدَائِعِ صُورِهِ قَوْلُهُ يُتِمِّلُ الرَّعْدَ أَسَدًا :
تَهَزَّمِ الرَّعْدُ حَتَّى خِلَتْهُ أَسَدًا
أَمَامَهُ - مِنْ بُرُوقِ - أَلْسِنٍ دُلُوعٍ
وَقَوْلُهُ مُنْتَصِرًا لِلظُّبَى مُنْحِيًا بِاللَّامَةِ عَلَى الْأَسَدِ :
يَهَاجِرُ غَابَهُ الضَّرْغَامُ كَيْمَا
يَنَازِعُ ظُبَى رَمَلٍ فِي كِنَاسٍ
١٠ - الْأَسَدُ الرَّهِيصُ .

وَلَا يَفُوتُهُ أَنْ يُشِيرَ فِي بَعْضِ رَسَائِلِهِ إِلَى الْأَسَدِ
الرَّهِيصِ ، وَهُوَ لَقَبُ وَزَرَ بْنِ جَابِرِ النَّبْهَانِيِّ قَاتِلِ « عَمْتَرَةَ »
فَيَقُولُ :

عنتره عبس ،

لَقِيَ مِنَ الْأَسَدِ الرَّهِيصِ

سَاعَةً أَبْسِ ، (ساعة سوء وقهر)

١١ — الْأَسَدُ وَالشَّجَرُ

أَوْ يَقُولُ : جَارِيًا عَلَى عَادَتِهِ فِي التَّلَاعُبِ بِالْأَلْفَاظِ :

وَرَبُّكَ فَاسِمِ الْأَرْزَاقِ :

إِنَّ الْوَحْشِيَّةَ أَكَلَتِ الْقَسُورَ (وَهُوَ ضَرْبٌ مِنَ النَّبْتِ)

فِي رَأْدِ النَّهَارِ (ارْتِفَاعِهِ)

وَأَكَلَهَا الْقَسُورُ (الْأَسَدُ) بِالْأَصْمِيلِ .

وَاللَّهُ بِمَا كَانَ مِنْهُمَا عَالِمٌ خَبِيرٌ^(١)

١٢ — كَيْدُ النَّاسِ

عَلَى أَنَّ كَيْدَ الْإِنْسَانِيِّ — فِيمَا — يَرَى — قَدْ تَغَلَّبَ

عَلَى شَجَاعَةِ الْأَسْوَدِ :

(١) يقول : ان ذلك كله قد تم بإرادة الله — سبحانه — ومشيئته :

ولو لم يرد جور البزاة على القطا مصورها ، ما صاغها بمناسر

فَالْ حَوَاءَ رَاعُوا الْأَسَدَ مُخْدَرَةً

وَلَمْ يُغَادُوا بِسَلَمِ رَبَّةِ الْوَجَرِ^(١)

وقريب منه قوله :

يا حُرَّة : أَمَا تَخَافِينَ الْجَرَّةَ (وهي ضرب من مصائد
الطباء) إِنَّكَ لَذَاتُ جُرْأَةٍ عَلَى جِرَاءِ الْمَأْسَدَةِ^(٢).

وقوله :

إِذَا الْأَصَاغِرُ لَاقَتْهَا أَكْبَرُهَا
فَتِلْكَ لِلشَّرِّ أَشْبَالُ وَأَسَادُ
وقوله :

يَكْرَهُ عَوْلَ الشَّيْنِخِ ابْنَاؤُهُ
وَهَلْ تَعُولُ الْأَسَدَ الْأَشْبُلُ ؟

(١) الوجر : جمع وجرة كقصة وقصب وهي حفرة تجعل للوحش إذا مرت
بها عرقبتها ، وليست هذه اللقات بمستغربة ممن يقول :
فيأليت أني لم أكن في بركة وإلا فوحشيا بأحدى الأمالس
وقوله :

وما الظبيات مني خائفات وردن على الأصائل - أوردنه
(٢) الجراء : أولاد الأسد ، واحدها جرو ، والمأسدة موضع الأسود .

وَقَوْلُهُ :

قَوْمٌ سَوَاءٌ ، فَالْشَّبِيلُ مِنْهُمْ يَنْغُولُ إِلَّا
نَيْتَ فَرَسًا ، وَاللَّيْثُ يَا كُلُّ شَبْلَةٍ

وَقَوْلُهُ :

رَبِّتْ شَبْلًا ، فَلَمَّا أَنْ غَدَا أَسَدًا
عَدَا عَلَيْكَ ، فَلَوْلَا رَبُّهُ أَكَلَكَ ؟

وَقَوْلُهُ :

وَكَمْ أَيْمُوا مِنْ ضَنِغَمٍ أُمَّ أَشْبِلٍ
وَكَمْ أَنْكَلُوا مِنْ أُمَّ شَادٍ وَشَادِنٍ ؟

وَمَا أَكْثَرَ مَا يَفِيضُ شَاعِرُنَا بِالشَّكْوَى مِنْ بَغْيِ
الْإِنْسَانِ وَافْتِمَاتِهِ عَلَى الْحَيَوَانِ ، فَهُوَ يَقُولُ :

وَيَنْصَبُونَ لَوْحِشِي حَبَائِلَهُمْ

أَوْ بِالشَّهَامِ — عَلَى عَمْدٍ يَشْكُونَهُ

أَوْ يَقُولُ مُفَضَّلًا الْوَحْشَ عَلَى الْآدَمِيِّ :

أَزْكَى مِنَ الْعَيْنِ ^(١) — فِي آنَافِهَا شَمٌّ
عَيْنٌ ^(٢) مِنَ الْوَحْشِ فِي آنَافِهَا خَنْسٌ ^(٣)

أَوْ يَقُولُ :

فَلْتَلْبَسِ الْوَحْشُ نَعْمَى لَا حِذَاءَ لَهَا

يَقِي التَّرَابَ ، وَلَا لِلْهَامِ تَرْجِيلٌ ^(٤)

وَهَذَا الْمَعْنَى قَرِيبٌ مِنْ قَوْلِهِ يُخَاطَبُ الذَّنْبُ :

وَمَا كَسَوْتَ إِذَا قُرْنِي جَسَدًا

وَلَا حَذَوْتَ — حِذَارًا لِلْوَجَى — قَدَمَا

وَمِنْ بَدَائِعِ لَفَتَاتِهِ قَوْلُهُ يُسَائِلُ نَفْسَهُ : هَلْ بَرِئْتُ

مِنَ الْحَسَدِ اجْتَنَسُ الْحَيَوَانَ فَيَقُولُ :

فِينَا الشُّحَّاسُ مَعْرُوفٌ فَهَلْ حَسَدْتُ

مُجْتَرَّةَ الْإِبِلِ أُخْرَى مَالَهَا جِرَرٌ ؟

أَوْ يَقُولُ :

وَلَا وَرَدُ غَابٍ ، لَهُ حُلَّةٌ ^(٥) مِنْ الدِّمِّ فِي الْغِيلِ وَرْدِيَّةٌ

(١) أهل البلد ، والجماعة . (٢) بقر وحشى .

(٣) قصر الأنف وتأخر أرنبته .

(٤) يعنى : أنها لا تحتاج إلى تمشيط رأسها وتسريحه .

أَوْ يَقُولُ :

إِنِّي لَمِنْ آلِ حَوَاءَ الَّذِينَ هُمْ

ثَقُلَ عَلَى الْأَرْضِ غَانِيهَا وَعَافِيهَا^(١)

جَارُوا عَلَى حَيَوَانَ الْبَرِّ ثُمَّ عَدَوْا

عَلَى الْبَحَارِ ، فَغَالَ الصَّيْدُ مَا فِيهَا

لَمْ يُقْنِعِ الْحَيَّ مِنْهَا مَا تَقَنَّنَصَهُ

حَتَّى أَجَازَ أَنْاسُهُ أَكْلَ طَافِيهَا

أَوْ يَقُولُ :

وَلَيْسَ أَخُوكَ إِلَّا لَيْثٌ غَابَ

يَسُورُ إِلَى افْتِرَاسِكَ بِافْتِرَاصِ^(٢)

وَمِنْ مُقَابَلَاتِهِ بَيْنَ طَبْعِي الْإِنْسَانِ وَالْأَسَدِ ، قَوْلُهُ

يَصِفُ أَلْفَةَ الْأَسْوَدِ لِلظَّلَامِ ، وَنَفْرَةَ الْأَنْامِ مِنْهُ :

(١) غَانِيهَا : آهْلِهَا وَعَامَرُهَا ، وَعَافِيهَا : دَارِسُهَا .

(٢) الْافْتِرَاصُ : مَصْدَرُ افْتَرَصَهُ أَصَابَ فَرِيصَتَهُ ، وَالْفَرِيصَةُ وَاحِدَةُ أَوْدَاجِ الْعَنْقِ .

« جَزَعَ تَزِيعٌ ، (غَرِيبٌ) مِنْ ظُلْمَةِ الْهَزِيعِ ، (الْقِطْعَةُ مِنْ اللَّيْلِ) ، وَالْأَسْوَدُ ، لَا تَفْزَعُ مِنَ اللَّيَالِي السُّودِ . »
 وَهُوَ فِي هَذَا اللَّوْحِ يَصِفُ مَادَّةَ الْأَسْوَدِ ، فَيَقُولُ :
 الْوَحَافُ ، (الْأَرَاضِي السُّودُ ، أَوِ الْحُمْرُ) ،
 لَهُنَّ مِثْلُ الصِّحَافِ ، ^(١) (الْأَطْبَاقِ)
 ثُمَّ يَصِفُ عِزَّتَهُنَّ فَيَقُولُ :
 يَتَّحِدْنَ (مِنَ الْوُحْدَةِ) فَلَا يَجِدْنَ ^(٢) .
 وَيُوَالِينَ الصَّيْدَ فَلَا يُبَالِينَ ،

مَارِئْنَ (مَا بَرَحْنَ) يَفْعَلْنَ ذَلِكَ إِلَى أَنْ هَرَمْنَ ،
 وَيَقْتَرِينَ الرَّكْبَ (يَتَتَبَعْنَ) ، فَلَا يَقْرِينَ (لَا يَطْلُبْنَ
 ضِيافَةً وَلَا يَلْتَمِسْنَ الْقَرَى وَهُوَ مَا يُقَدَّمُ لِلْأَضْيَافِ مِنْ
 طَعَامٍ) وَرُبَّمَا بَنَيْنَ وَقَدْ عَمِينَ (وَقَعْنَ فِي أَمْرِ شَاقٍّ ، وَلَقِينَ
 مَا يَشُقُّ عَلَيْهِنَّ نَحْمَهُ) فَسَبَّحْنَ — لَيْلَهُنَّ — حَتَّى أَصْبَحْنَ ! »

(١) يعنى أنهن يأكلن فرائسهن على الأرض ، فكأن الأرض صحفة طعامهن

(٢) يجدن : يفضبن أو يشعرن بالحزن ، يعنى أنهن يألفن العزلة فلا يشعرن

بالوحشة إذا انفرادن ، وهن بذلك على العكس من الأناسى .

ومن مختار صورَه في تمثُّل مُفاجآتِ القَدَر ، وَكَيْفَ
يَفِرُّ الخَائِفُ الحَذِر ، فَلَا يُنْجِيهِ خَوْفٌ ، وَلَا يَنْفَعُهُ حَذَرٌ ،
قَوْلُهُ فِي لُزُومِيَّاتِهِ :

يَبْنَا امْرُؤٌ يَتَوَقَّى الذُّنْبَ — عَنْ عُرْضِ —

أَتَاهُ لَيْثٌ — عَلَى الْعِلَاتِ — يَفْتَرِسُ

وَقَدْ عَرَضَ لِهَذَا الْمَعْنَى — فَجَلَّاهُ فِي صُورَةٍ أُخْرَى
مِنْ فُصُولِهِ ، تُمَثِّلُ بَعْضَ الْوُعُولِ ، وَقَدْ انْعَطَفَ قَرْنَاهُ
حَتَّى أَصَابَا بِعَجْزِهِ — أَوْ ظَهَرَهُ ، وَقَدْ نَاءَ بِاخْتِمَالِ الْبَرْدِ الْقَارِسِ ،
وَعَجَزَ عَنْ تَوَقِّيهِ ، فَلَاذَ بِالْفِرَارِ لَعَلَّهُ يَظْفَرُ — فِي عَذْوِهِ
وَجَرِيهِ — بِشَيْءٍ مِنَ الدَّفءِ ، فَإِذَا بِهِ يَلْقَى مَصْرَعَهُ وَشَمِيمَا
عَلَى يَدِ أَسَدٍ فَرَّاسٍ ، يَفْزَعُ — لِهَوْلِ مَرَّاهُ — كُلُّ مَنْ
رَأَاهُ ، ثُمَّ يَلْتَمِسُ لِلْأَسَدِ عُدْرَهُ فِيمَا فَعَلَ ، لِأَنَّ حَيَاتَهُ
قَائِمَةٌ — بِإِذْنِ اللَّهِ — عَلَى الْفَتَكِ وَالْعُدْوَانِ ، وَافْتِرَاسِ
غَيْرِهِ مِنْ صُنُوفِ الْحَيَوَانِ ، قَالَ :

«فَرَّ النَّاخِسُ [الْوَعْلُ] الَّذِي قَدْ انْعَطَفَ قَرْنَاهُ حَتَّى أَصَابَا

عَجَزَهُ أَوْ ظَهَرَهُ [مِنْ الْقَرَيْسِ، [الْبَرْدِ]، فَأِذَا هُوَ، قَرَيْسٌ
[مُفْتَرَسٌ]، طَلَبَ الْأَذْقَى [الْوَعْلُ الَّذِي انْعَطَفَ قَرْنَاهُ عَلَى
ظَهَرِهِ] الدَّفءُ، فَلَقِيَهُ ذُو نَافِضٍ ^(١) مِنْ الْأَسَادِ،
وَاللَّهُ جَعَلَ رِزْقَ الضَّيْعَمِ فِي الْحَيَوَانِ.

وَفِي إِحْدَى رَسَائِلِهِ صُورَةٌ حَزِينَةٌ تُشَبِّهُ بِقَرَّةٍ جَمِيلَةٍ
الْمَنْظَرِ، يَزِينُ جِلْدَهَا أَلْوَانٌ مِنَ الْخُطُوطِ وَالنَّقُوشِ، تَنْعَمُ
فِي مَرْعَاهَا مَعَ صَغِيرِهَا الْمَحْبُوبِ: مَنَاطٍ رَجَائِهَا، وَمَعْقِدِ
أَمَلِهَا — فِي الدُّنْيَا — وَمَصْدَرِ عَزَائِهَا، وَهِيَ تَرُوضُهُ عَلَى
الْفِطَامِ مَرَّةً بَعْدَ أُخْرَى، وَتَعْذُوهُ بِلَبَنِهَا حِينًا بَعْدَ آخِيَانِ،
وَقَدْ حَلَا عَيْشُهُمَا، وَطَابَ لَهُمَا الزَّمَانُ، وَنَسِيَتْهُمَا صُرُوفُ
الدَّهْرِ وَمُفَاجِئَاتُ الْحِذْثَانِ.

وَبَقِيَتْ مَشْغُولَةً عَنْ وَلَدِهَا — ذَاتَ يَوْمٍ — بِذَلِكَ الْمَرْعَى
الْأَيْقِ، وَقَدْ أَكَلَتْ مِنْ زَادِهِ الْهَيْءِ، وَتَنَاوَلَتْ مِنْ طَعَامِهِ
الْمَرِيءِ، مَا أَشْبَعَهَا وَمَلَأَ ضَرْعَهَا (ثَدْيَهَا) لَبْنًا.

(١) النافض، حمى الرعدة.

فَلَمَّا تَمَّ لَهَا مِنَ الرَّغْيِ مَا أَرَادَتْ ، ذَكَرَتْ وَلَدَهَا
 الْحَبِيبَ ، كَيْفَ خَلَفَتْهُ فِي إِحْدَى الْفَلَوَاتِ ، أَوْ نَسِيَتْهُ فِي بَعْضِ
 الْمَفَازَاتِ ، وَاشْتَدَّ إِشْفَاؤُهَا عَلَيْهِ ، وَحَنِينُهَا إِلَيْهِ ، فَأَسْرَعَتْ
 الْبَقَرَةُ الْوَحْشِيَّةُ ، لَتُمْتِعَ فَلَذَةً كَبِدِهَا ، بِمَا أَعَدَّتْهُ لَهُ فِي ضَرْعِهَا ،
 مِنْ زَادٍ سَائِغٍ هَنِئٍ ، يَرْضَعُهُ أَفَاوِيقٌ مِنْ لَبَنِهَا الْمَرِيءِ ،
 وَمَا كَادَتْ الْبَائِسَةُ تَصِلُ إِلَيْهِ حَتَّى اشْتَدَّ هَلَعُهَا
 عَلَيْهِ ، فَجَزَعَتْ وَتَفَزَّعَتْ ، وَهَالَهَا مَا رَأَتْ ، فَأَنْتَ
 وَتَوَجَّعَتْ ، فَلَمْ تَظْفَرْ مِنْ وَحِيدِهَا بِغَيْرِ أَجْزَاءٍ .
 إِذْ لَمْ يُبْقِ مِنْهُ الْأَسَدُ غَيْرَ رَأْسِهِ مُتَتَاثِرًا مَزَقًّا ، وَشَلُوعًا
 مِنْ جَسَدِهِ مُبْعَثَرًا مُتَفَرِّقًا ، وَلَمْ يَتْرَكْ بَعْدَ ذَلِكَ غَيْرَ يَدَيْهِ ،
 وَجِلْدِهِ وَرَجْلَيْهِ .

فَإِذَا انْتَهَى شَاعِرُنَا مِنْ إِبْدَاعِ هَذِهِ الصُّورَةِ الْمُفْجِعَةِ ،
 أَفْضَى إِلَيْنَا — عَلَى عَادَتِهِ — بِالْمَصْدَرِ الَّذِي أَوْحَاهَا ، وَالْأَهْمَةُ
 إِيَّاهَا ، فَتَبَهَّنَا شَاعِرُنَا إِلَى آيَاتٍ رَائِعَةٍ أَبْدَعَهَا « الْقَطَامِيُّ »
 الشَّاعِرُ فِي وَصْفِ نَاقَتِهِ ، وَهِيَ تَكَادُ تَطِيرُ لِحْفَةً سَيْرِهَا ،

حَتَّى خَيْلٍ إِلَيْهِ — لِفَرَطٍ سُرْعَتِهَا — أَنَّهَا وَخْشِيَّةٌ مُؤَلِّهَةٌ الْقَلْبَ ،
مَسْلُوبَةُ اللَّبِّ ، تَذَرَعُ الْفَلَوَاتِ فِي سُرْعَةِ خَاطِفَةٍ ، بَعْدَ أَنْ
رُزِمَتْ — مُنْذُ قَلِيلٍ — فِي طِفْلَيْهَا ، وَحُرِمَتْ بِذَلِكَ عِدَلِ
نَفْسِهَا ، وَأَضَاعَتْ بِفَقْدِهِ مَصْدَرَ أَنْسِهَا :
فَمَكَرَتْ عِنْدَ فَيْئَتِهَا إِلَيْهِ ^(١)

فَأَلْفَتْ — عِنْدَ مَرَبَضِهِ — السَّبَاعَا
لَعِبْنِ بِهِ ، فَلَمْ يَتْرُكْ إِلَّا
إِهَابًا ^(٢) — قَدْ تَمَزَّقَ — أَوْ كُرَاعًا ^(٣)

١٣ — فِي الدَّارِ الْآخِرَةِ

وَقَدْ تَمَثَّلَ الْأَسَدَ شَاعِرُنَا فِي رِسَالَةِ الْغُفْرَانِ ، يَلْقَاهُ
صَاحِبُهُ « ابْنُ الْقَارِحِ » فِي الْجَنَّةِ وَهُوَ يَسِيرُ مُتَنَزِّهًا فِي
الْفِرْدَوْسِ ، فَيَرَاهُ ابْنُ الْقَارِحِ لَمْ يُغَيِّرْ مِنْ عَادَتِهِ فِي
الْفَتَنِ بِالْحَيَوَانِ وَالتَّلَذُّذِ بِافْتِرَاسِهِ ، وَيَسْتَدْرِكُ شَاعِرُنَا
— كَمَا نَبَّهْنَا إِلَى ذَلِكَ فِي مَوْضِعِهِ مِنْ رِسَالَةِ الْغُفْرَانِ —
فَيَمَثِّلُ لَنَا فَرَائِسَ الْأَسَدِ فِي الدَّارِ الْآخِرَةِ لَا تَأْذِي بِظَفْرِ

(١) عِنْدَ رَجْعَتِهَا وَعَوْدَتِهَا إِلَيْهِ . (٢) الْإِهَابُ : الْجِلْدُ . (٣) الْكُرَاعُ
— مِنَ الْبَقَرِ وَالْبَقَرِ وَالْغَنَمِ — بِمَنْزِلَةِ الْوُظَيْفِ مِنَ الْفَرَسِ ، وَهُوَ : مُسْتَدِيقُ السَّاقِ .

وَلَا نَابٍ، بَلْ تُسَرُّوْا تَلْتَدُ بِمَا كَانَتْ تَأْلُمُ لَهُ مِنَ الذَّبْحِ وَالْقَتْلِ
فِي الدَّارِ الْأُولَى. وَهَذِهِ الْإِشَارَةُ لَا يَتَنَاقَضُ «أَبُو الْعَلَاءِ»
مَعَ نَفْسِهِ فِي تَحْرِيمِ ذَبْحِ الْحَيَوَانِ الَّذِي يَرَى لَهُ مِثْلَ مَا يَرَى
لِلْإِنْسَانِ مِنَ الْحَقِّ فِي الْحَيَاةِ وَالتَّمَتُّعِ بِهَا.

وَفِي هَذِهِ الصُّورَةِ الْفَنِّيَّةِ يَقُولُ أَبُو الْعَلَاءِ :

وَيَحْمُ^(١)، فَإِذَا هُوَ بِأَسَدٍ يَفْتَرِسُ مِنْ صِيرَانِ^(٢) الْجَنَّةِ،
وَحَسِيلِهَا^(٣)، فَلَا تَكْفِيهِ مِائَةٌ وَلَا مِائَتَانِ فَيَقُولُ (ابْنُ
القَارِجِ) فِي نَفْسِهِ :

«لَقَدْ كَانَ الْأَسَدُ يَفْتَرِسُ الشَّاةَ الْعَجْفَاءَ^(٤) فَيُقِيمُ
عَلَيْهَا الْأَيَّامَ، لَا يَطْعَمُ سِوَاهَا شَيْئًا» .
فَيَلْمُهُمُ الْأَسَدُ أَنْ يَتَكَلَّمَ — وَقَدْ عَرَفَ مَا فِي نَفْسِهِ —
فَيَقُولُ :

يَا عَبْدَ اللَّهِ ! أَلَيْسَ أَحَدُكُمْ فِي الْجَنَّةِ تُقَدَّمُ لَهُ الصَّحْفَةُ^(١)
فَيَأْكُلُ مِنْهَا مِثْلَ عُمُرِ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ، يَلْتَدُ بِمَا

(١) يسير . (٢) قطعان بقر الوحش .

(٣) أولاد البقر . (٤) الهزيلة .

أَصَابَ ، فَلَا هُوَ مُكْتَفٍ ، وَلَا هِيَ الْفَانِيَةُ ! وَكَذَلِكَ
 أَنَا أَفْتَرِسُ مَا شَاءَ اللَّهُ ، فَلَا تَأْذَى الْفَرِيْسَةُ بِظُفْرِ وَلَا نَابٍ ،
 وَلَكِنْ تَجِدُ مِنَ اللَّذَّةِ كَمَا أَجِدُ بِلُطْفِ رَبِّهَا الْعَزِيزِ !
 أَتَدْرِي مَنْ أَنَا ؟ أَنَا أَسَدُ الْقَاصِرَةِ الَّتِي كَانَتْ فِي طَرِيقِ
 مِصْرَ ، فَلَمَّا سَافَرَ « عُتْبَةُ بْنُ أَبِي لَهَبٍ » يُرِيدُ تِلْكَ الْجُمُةَ ،
 وَقَالَ النَّبِيُّ ، صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ : « اللَّهُمَّ سَلِّطْ عَلَيْهِ
 كَلْبًا مِنْ كِلَابِكَ » (١) ، أَلْهِمْتُ أَزْ أُنْجَوْعَ لَهُ أَيَّامًا ، وَجِئْتُ
 وَهُوَ نَائِمٌ بَيْنَ الرُّفْقَةِ ، فَتَخَلَّلْتُ (٢) بَيْنَ الْجُمَاعَةِ إِلَيْهِ
 وَأَدْخَلْتُ الْجُمُةَ بِمَا فَعَلْتُ .

(١) القصبة الكبيرة المنبسطة .

(٢) السكاب (هنا) : الأسد : وفي الحديث : « أما تخاف أن يأكلك كلب الله ؟ »
 فجاء الأسد ليلا فاقتلع هامته من بين أصحابه .

(٣) دخلت بينهم ، أو خلال دارهم .

الفصل الخامس

مصرع أسامة

١ - القصيدة الأولى

وَلَقَدْ افْتَنَّ شَاعِرُنَا — عَلَى عَادَتِهِ — أَيَّمَا افْتِنَانٍ ، فِي
تَصْوِيرِ مَصَارِعِ الْأَسُودِ ، وَأَوْدَعَ الْوَاوَحَهُ — مِنْ رَوَائِعِ الْأَخْيَلَةِ
— صُورًا فَنِيَّةً نَادِرَةً . يُحْسِنُ مِنْهَا لَوْحَانِ ، نَخْتِمُ بِهِمَا هَذَا
الْحَدِيثَ بَعْدَ أَنْ امْتَحَنَّا صَبْرَ الْقَارِي ، فَتَنَجَّحَ فِي الْامْتِحَانِ
أَوْفَى نَجَاحٍ ، وَاسْتَغْلَلْنَا كَرَمَهُ فَكَانَ مَثَلًا لِلْبَذْلِ وَالسَّمَاحِ .
وَإِلَى الْقَارِي قِصَّةُ أَحَدِ الْمَصْرَعَيْنِ ، الَّذِي تَعَرَّضَ لَهُ
أَوَّلُ الْأَسَدِينَ قَالَ تَقْبِسُهَا مِنْ بَعْضِ رَسَائِلِهِ ، فِيمَا يَلِي :

— ١ —

لَا يُفْلِتُ — مِنْ مَخَالِبِ الْأَيَّامِ — أَسَدٌ غَضَنْفَرٌ ،
لَا يَطْعَمُ النَّبَاتَ وَلَا الشَّجَرَ ،
وَلَا يَسْتَمِرُّ الْفَاكِهَةَ وَلَا الثَّمَرَ ،

وَالْكِنَّةُ يَفْتَرِسُ صَيْدَهُ — مِنَ الْأَحْيَاءِ — مَعَ ضَوْءِ
كُلِّ شَارِقٍ (١) ،

لَا يَخْتَلُهُ خَتَلُ الذَّبِّ الطَّارِقِ ،
وَلَا يَخْتَلِسُهُ اخْتِلَاسُ اللَّصِّ السَّارِقِ ،
بَلْ يَقْتُلُهُ فِي جُرْأَةِ الْغَاصِبِ الْوَائِقِ .
فَهُوَ لَا يَأْخُذُ فَرِيستَهُ غِيلَةً وَمُخَاتَلَةً ،
بَلْ يَنْتَهَبُهَا مُغَالَبَةً وَمُصَاوَلَةً .

إِذَا عَايَنَتْهُ الْجَمَاعَةُ مِنَ الْحُمْرِ الْوَحْشِيَّةِ رَوَّعَهَا ، فَوَلَّتْ
مُدْبِرَةً ، وَهَرَبَتْ نَافِرَةً ،

وَإِذَا آنَسَتْ مِنْهُ الرُّوْقَةُ شَبَعَهَا ، ذَعَرَ السَّافِرَةَ ،
وَرَاعَ — بَطَلَعَتِهِ — الْقَافِلَةَ ،
وَأَخَافَ — بِمَرَّاهِ — السَّابِلَةَ ،
تَخَالُ عَيْنُهُ جَذْوَةً مُتَقَدَّةً مِنَ الْغَضَبِ ،
أَوْ جَمْرَةً مُتَأَجِّجَةً مِنَ اللَّهَبِ ،
أَوْ قُرْصَ الشَّمْسِ تَوْهَجَ وَانْتَهَبَ .

بَدَأَ ، فِي جَنِّ نَشَاطِهِ وَرَيَعَانِ شَبَابِهِ ،
وَمُقْتَبِلِ عُمُرِهِ وَغَضِّ إِهَابِهِ ،
يَفْتِكُ بِأَسْرَابِ الْوَحْشِ ، مِنْ ظَلِيمِ أَحَمٍّ ، (قَتَّى
أَسْوَدَ مِنْ فِتْيَانِ النَّعَامِ) ،
جَلَّاهُ السَّوَادُ بِلَوْنِ الْغُرَابِ الْأَمْعَمِ ، (الْأَسْوَدُ)

وَوَعَلَ^(١) يَاوَى إِلَى شِعَافِ^(٢) الْجِبَالِ الْأَعْمَمِ^(٣) ،
لَا مَنَعَةَ لَهُ مِنْهُ وَلَا مُعْتَصَمَ^(٤) ،
وَتَلَّةٍ (جَمَاعَةٍ مِنْ ضَائِنَةِ الْغَنَمِ) آمِنَةٍ سَالِمَةٍ ،
أَخَذَ خِيَارَهَا لِعَرْسٍ — فِي عَرِّيَسَتِهِ — رَابِضَةً جَائِمَةً ،
بَعْدَ أَنْ اقْتَنَصَهَا فِي رَائِعَةِ الظَّهِيرَةِ ،
لِيُقَدِّمَهَا طَعَامًا شَهِيًّا لِلْبَاتَةِ الْأَمِيرَةِ ،

(١) الوعل : تيس الجبل . (٢) الشعاف : رؤوس الجبال ، وأعاليتها .

(٣) الأعصم ، من الطباء والوعول : ما في ذراعيه أو في أحدهما بياض ،

وسائر أسود ، أو أحمر . (٤) المعتصم : الملجأ .

وَتَوَزَّ مِنْ الْبَقْرِ لَهُ — بَيْنَ رَبْرَبِهِ — خُور ،
وَتَبَّ إِلَيْهِ وَثْبَةٌ مَارِدٍ جَبَّار ،
وَأَقْتَنَصَهُ فِي زَوَالِ نَهَارٍ ،
ثُمَّ اخْتَمَلَهُ لِعَرِيَّتِهِ ،
غَدَاءَ لِعِيَالِهِ وَقَرِيَّتِهِ ،

وَعَلَجَ مِنْ غُلُوجِ الْبَقْرِ فَتًى ،
آبَ (رَجَعَ) بِهِ لِأَشْبَالِهِ فِي الْعَشِيِّ ،
وَوَحْشِيٍّ مِنَ الْحُمْرِ سَمِينٍ قَوِيٍّ ،
صَرَعهُ بَعْدَ أَنْ رَعَى الرَّوْضَ الْعَاطِرَ الذَّكِيَّ ،

أَمَّا صَيْدُ الظَّبْيِ فَهُوَ — فِيمَا يَرَى — تَفَهُ حَقِيرٌ ،
يَصِيدُهُ عَاجِزٌ — كَالذَّنْبِ — مُخْتِاجٌ فَقِيرٌ ،

— ٣ —

ثُمَّ عَافَ (كَرِهَ) الْحُومَ الْوَحْشِ وَسَمَمَهَا ،

وَأَحَبُّ لِحُومِ الْإِنْسِ وَاسْتَطَعَمَهَا ،
 فَإِذَا أَبْطَأَ عَنْهُ — صُبْحًا — رَكِبَ يَغْدُو ،
 طَرَقَهُ — أَيْلًا — وَهُوَ عَائِدٌ يَغْدُو ،
 فَالْوَاحِدُ مِنْ رِجَالِ الرَّكْبِ لَهُ أَكِيلٌ (مَا كُولٌ) ،
 وَتَبْضِيعٌ ^(١) لَحْمِ اثْنَيْنِ مِنْهُمْ حَسَنٌ جَمِيلٌ ،
 وَفِي لَحْمِ الرَّجُلِ شِفَاءٌ مِنَ أَلَمِ الْجُوعِ وَأَذَاهُ ،
 وَفِي لَحْمِ الرَّجُلَيْنِ غِذَاءٌ مَا أَطْيَبُهُ لَهُ وَأَشْهَاهُ .

— ٤ —

وَلَمَّا أَخَافَ ذَلِكَ الْأَسَدُ الرَّثْبَالُ ،
 مَنِ اجْتَنَزَ بِهِ مِنْ أَبْطَالِ الرِّجَالِ ،
 وَفَزَعَ كُلَّ وَحْشِيٍّ يُجَاوِرُهُ فِي الْقَفْرِ ،
 وَكُلَّ إِنْسِيٍّ يَلْمُ بِسَاحَتِهِ مِنْ جَمَاعَةِ السَّفَرِ (الْمَسَافِرِينَ) ،
 اتَّفَقَ أَنْ مَرَّ بِهِ عَدَدٌ مِنَ الْأَبْطَالِ ،
 فِي أَيْدِيهِمُ الْقِسِيُّ وَالنَّبَالُ ،
 فَوَثَبَ إِلَى شُجَاعٍ مِنْهُمْ فَاغْتَتَقَهُ ،

وَفَرَّيْ (قَطَعَ) جَسَدَهُ وَمَزَقَهُ ،
 فَرَمَتْهُ صَاحِبَتُهُ بِمَعَابِلِ (بِسِهَامٍ) وَنِيبَالٍ ،
 وَهُوَ يَظُنُّ أَنَّهُ لَيْسَ بِمُسْتَطَاعِ الْمَنَالِ ،
 وَرَشَقُوهُ بِسِهَامِهِمْ حَتَّى لَكَانَهَا فِي جَسَدِهِ قَنَفَذٌ ^{مَرْمِي}
 أُخْرِجَ لِصَائِدِهِ شَوْكُهُ ،
 فَتَدَاعَى الْأَسَدُ ، وَلَمْ تَعُدْ لَهُ صَوْلَةٌ وَلَا شَوْكَةٌ ،

وَمَاتَ الْأَسَدُ ، كَمَا يَمُوتُ ابْنُ أَنْقَدَ (القنفذ)
 وَعِنْدَهُمْ أَنَّهُ لَمْ يَمُتْ وَلَكِنَّهُ رَقَدَ ،
 حَتَّى إِذَا بَانَ لَهُمْ أَنَّهُ مَاتَ ،
 تَنَاوَلُوهُ بِسُيُوفِهِمِ الْمَاضِيَاتِ ،
 وَتَعَاوَرُوا جِسْمَهُ مِنْ جَمِيعِ الْجِهَاتِ ،
 وَطَعْنُوهُ بِرِمَاحٍ مُشْرِعَةٍ ،
 حَتَّى عَرَفُوا — بَعْدَ لَايٍ — أَنَّهُ لَقِيَ مَصْرَعَهُ ،
 وَقَدْ بَضَعُوهُ قِطْعًا ، مِنْ شِدَّةِ الْغَيْظِ وَالْحَنَقِ ،

لَيْسَتْ وَثَقُوا أَنَّهُ فَارَقَ عَيْشَهُ الْأَنْقَ ،

— ٦ —

وَقَبْلَ ذَلِكَ طَالَمَا اقْتَسَرَ (اغتصب) ، فَقِيلَ : « قَسُور » ،
 وَسَاوَرَ (وائب) ، وَمِنْ أَسْمَائِهِ الْمِسُورُ ،
 وَرُبَّمَا بَرَزَ إِلَيْهِ أَمِيرٌ فِي خَيْلٍ وَحَاشِيَةٍ ،
 فَرَأَاهُ جَائِعًا عَلَى سَاعِدَيْهِ حَتَّى كَانَهُ مَلِكُ الْبَادِيَةِ ،
 فَاحْتَالَ فِي مُرَاوَعَتِهِ وَخَتَلِهِ ،
 حَتَّى تَمَكَّنَ مِنْ قَتْلِهِ ،

وَلَوْ نَجَا مِنْ ذَلِكَ الْأَمِيرِ وَأُولَئِكَ السَّفَرِ (المُسَافِرِينَ)
 وَعَاشَ يَتَحَكَّمُ فِي الْبَادِيَةِ وَالْقَفْرِ ،
 لَلْفَظَ نَفْسَهُ فِي الشَّيْخُوخَةِ وَالْهَرَمِ ،
 وَرَضِيَ بِالتَّفِهِ — مِنَ الرِّزْقِ — بَعْدَ الصَّيْدِ إِلَّا كَرَمَ .
 ٢ — القصة الثانية

— ١ —

وإليك الصورة الثانية مترجمة من بعض فصوله ،

وَهِيَ تُمَثِّلُ أَسَدًا هَائِلًا ضَخْمًا ،
 خَشِيَ الظَّلْمَةَ رَائِعًا جَهْمًا ،
 فِي أَرْسَاغِهِ فَدَعَ ^(١) وَاعُوِ جَاجٌ ،
 كَأَنَّمَا كُسِرَ سَاعِدَاهُ ، فَمَا اسْتَوَى جَبْرُهُمَا وَلَا التَّامُّ
 بَعْدَ عِلَاجٍ .

وَهُوَ عَلَى قُوَّتِهِ وَتَجَبُّرِهِ ، وَسَطَوْتِهِ وَتَكَبُّرِهِ ،
 يُقَدِّسُ مَوْلَاهُ ، وَيُسَبِّحُ بِحَمْدِ اللَّهِ ،
 فَإِذَا خَرَجَ مِنْ عَرِيسَتِهِ ، وَلَا حَ لِفَرِيسَتِهِ ،
 أَفْزَعَهَا مَرَّاهُ ، وَصَرَاعَهَا الْخَوْفُ قَبْلَ أَنْ تَلْقَاهُ .
 وَيَسْتَلِمُهُمْ شَاعِرٌ نَاقُولَ « أَبْنِ قَيْسِ الرُّقِيَّاتِ » فِي
 وَصْفِ أَسَدٍ :

يَقُوتُ شِبْلَيْنِ عِنْدَ مَرْضِعَةٍ
 قَدْ نَاهَزَا لِلْفِطَامِ ، أَوْ فُطِمَا

(١) الفَدَعُ : اعوجاج الرسغ من اليد أو الرجل حتى تنقلب الكف أو القدم عند المشي ، وهو خلق مشاهد في أرساغ الأسد عند مشيته .

ما مَرَّ يَوْمٌ إِلَّا وَعِنْدَهُمَا
 لَحْمٌ رِجَالٍ ، أَوْ يُولِغَانِ دَمَا
 كَأَنَّمَا كُسِّرَتْ سَوَاعِدُهُ
 فَمَا اسْتَوَى جَبْرُهَا ، وَلَا التَّمَامُ
 فَيَصَوِّرُهُ — كَمَا صَوَّرَهُ ابْنُ الرُّقَيَّاتِ — كَأَنَّ مِفْصَلِي
 سَاعِدَيْهِ قَدْ كُسِرَا ، ثُمَّ أُعِيدَا بَعْدَ الْكُسْرِ ،
 فَمَا اسْتَوَى — بَعْدَ الْعِلَاجِ — جَبْرُهَا ،
 وَلَا التَّمَامُ — بَعْدَ الشِّفَاءِ — عَظْمُهَا ،
 فَلَا عَجَبَ إِذَا بَدَأَ كَأَنَّ فِي أَرْسَاعِهِ ^(١) فِدْعًا (شَدَخًا) ،
 إِذَا نَهَضَ تَشَاقَلَ فِي نَهْضَتِهِ .
 وَإِذَا مَشَى ظَلَعَ (غَمَزَ) فِي مِشْيَتِهِ .
 وَعَرَجَ فِي خَطَرَتِهِ .

(١) الأرساع : جمع رَسْع ، وهو : موصل الوظيف من اليد والرجل ، أو
 مفصل ما بين الساعد والكف والساق والقدم — ومثل ذلك — من كل دابة ،
 (والوظيف : مستند الذراع والساق ، أو هو مقدم الساق) .

لَا يَزَالُ مِنْ رِزْقِ اللَّهِ مُخْتَضِبًا بِمِثْلِ الصَّرْفِ ^(١) الْأَحْمَرِ ،
 إِذَا عَلِقَتْ بَرَائِنُهُ وَاصْطَبَغَ بِهِ سَاعِدَاهُ ، حَمِدَ رَازِقَهُ وَشَكَرَ .
 وَهُوَ رَائِعُ الْبَطْشِ وَالْقُوَّةِ ، عَظِيمُ الْبَأْسِ وَالْفُتُوَّةِ ،
 فَإِذَا أَقْوَى (فَنِي زَادَهُ) مَلَأَ مَسَامِعَ الْوَحْشِ زَيْرًا
 وَصَخَبًا ، وَخَلَعَ الْقُلُوبَ دُغْرًا وَرَهَبًا ،

يَرَعَى أَشْبَلَهُ وَيُرْحَمُهُنَّ ،
 وَيَخْصُنَّ بِأَطْيَبِ مَا عِنْدَهُ وَيُؤَثِّرُهُنَّ ،
 وَيَمْنَحُهُنَّ لَدَائِدَ الْأَطْعِمَةِ وَيَقْوِيَهُنَّ .
 يُوسِعُهُنَّ — فِي الْمُدَاعَبَةِ — خَمَشًا وَعَضًا ،
 فَيَجْزِيَن تَدْلِيلَهُ إِعْرَاضًا رَحِيمًا وَغَضًا ،
 وَيَمَسُّهُنَّ مَسًّا رَفِيقًا ،
 وَيُعَاقِبُهُنَّ عِقَابًا رَفِيقًا ،
 وَيُرْسِطُهُنَّ لِلصَّيْدِ إِذَا شَدَنَّ (إِذَا نَمُون وَتَرَعَرَعَنَّ ،
 وَاسْتَغْنَيْنَ عَنْ أُمِّهِنَّ)

(١) الصرف : صبغ أحمر يصبغ به الجلد .

وَيَعْلَمُهُنَّ كَيْفَ يَصِدْنَ ،

إِذَا تَمَّ نُمُوهُنَّ وَكَبُرْنَ .

يَلْبِدُ الشَّادِي مِنْهُنَّ لِفَرِيْسَتِهِ ، فَيَقْتَنِصُهَا بَوْنِبَةُ لِسَاعَتِهِ ،

فَإِذَا فَرَسْنَ (قَتَلْنَ فَرَائِسَهُنَّ ، وَدَقَقْنَ أَعْنَاقَهُنَّ) لَمْ يَرْقُبْ

الْأَبُ فِيهِنَّ إِلَّا (قِرَابَةً وَعَهْدًا) وَلَا ذِمَّةً ،

وَلَا يَرْعَى لَهُنَّ حُرْمَةً ،

وَلَا يُحِسُّ نَحْوَهُنَّ عَاطِفَةَ رَحْمَةٍ .

— ٢ —

تَبَارَكَ رَبُّكَ الْقَدِيمُ ، غَرَزَ فِي طَبِيعَةِ الْبِهَائِمِ رَحْمَةً

الْأَبْنَاءَ ، وَسَلَبَهُنَّ عَاطِفَةَ الْخُنُوِّ عَلَى الْآبَاءِ .

لَا يَرَحِمُ أَحَدُهُنَّ أَبَاهُ ، إِذَا مَسَّهُ الضَّرُّ وَشَفَّهُ الْإِلْمُ ،

وَلَا يُطْعِمُهُ وَلَوْ أَشْفَى عَلَى الْهَلَاكِ مِنَ الْجُوعِ وَالضَّرَمِ^(١) .

وَسُبْحَانَ مَنْ جَعَلَ بَعْضَ بَنِي آدَمَ كَالْبِهَائِمِ فِي الْعُقُوقِ ،

وَفِي جَعْدٍ مَا لِلْآبَاءِ عَلَيْهِمْ مِنْ رِعَايَةٍ وَحُقُوقٍ .

(١) الضرم : شدة الجوع أو الغضب .

— ٣ —

هَزَبَتْهُ كَأَنَّمَا بِهِ رِغْدَةٌ مِنْ حُمَّى «خَيْرَ» أَوْ «الْقَطِيفِ» ،
مَتَى جَاعَ فَلَيْسَ بِالْقَانِعِ وَلَا الْعَفِيفِ .

كَالْحِجِّ فِي صُورَةِ الْغَضْبَانِ ، وَمَا بِهِ غَضَبٌ ،
لَا يُجْجِمُ إِذَا أَلَحَّ عَلَيْهِ الْجُوعُ وَلَجَّ بِهِ السَّغْبُ ^(١) ،
أَنْ يُلْحِقَ بِأَكِيلِهِ الْهَلَاكَ وَالْعَطَبَ .

جَرَى ، عَمَدًا إِلَى جَمَاعَةٍ مِنَ النَّاسِ ،
أَهْلَ شَجَاعَةٍ وَأُولَى بَاسٍ ،

فَدَابَّ عَلَى أَنْ يَقْنِصَ (يَصِيدَ) مِنْهُمْ قَنِيصَتَهُ ،

وَيَأْكُلُ — مِنْ وَافِدِهِمْ — فَرِيَسَتَهُ ،

فَالْبُؤَا (جَمَعُوا) عَلَيْهِ شُجْعَانَهُمْ مِنْ كُلِّ بَلَدٍ ،

وَقَعَدُوا لَهُ كُلَّ مَرَضَدٍ ،

وَنَسَلُوا إِلَيْهِ مِنْ كُلِّ حَدَبٍ ^(٢) ،

وَلَبَسُوا لَهُ الدَّرُوعَ وَالْيَلْبَ ^(٣) ، (الْتَرَسَةَ أَوْ الدَّرُوعَ

الْيَمَانِيَّةَ مِنَ الْجُلُودِ)

(١) السَّغْبُ : الْجُوعُ مَعَ تَعَبٍ . (٢) الْحَدَبُ : مَا ارْتَفَعَ مِنَ الْأَرْضِ .

(٣) وَقِيلَ : جُلُودٌ يَخْرُزُ بَعْضُهَا إِلَى بَعْضٍ تَلْبِيسَ عَلَى الرُّءُوسِ خَاصَّةً .

وَخَرَجُوا إِلَيْهِ آلَافًا ،
 وَسَقَوْا لَهُ — مِنَ النَّصَالِ — سُمًّا ذُعَافًا .
 وَأَعَدُّوا لَهُ مَاضِيَ الْيَمَانِيَّةِ ، وَطَوَالَ الرَّمَاحِ ،
 وَحَمَلُوا — لِفَتْكَ بِه — كُلَّ آلَةٍ أُعِدَّتْ لِلْقِتَالِ وَالْكِفَاحِ ،
 وَلَيْسَ بَيْنَهُ وَبَيْنَهُمْ ، إِلَّا الْمَدَى الْيَسِيرُ .
 فَدَلَفَ (مَشَى مَشْيًا قَارَبَ فِيهِ الْخَطْوَ) إِلَيْهِمْ ،
 وَأَجْلَبَ عَلَيْهِمْ (صَاحَ بِهِمْ) ،
 فَفَضَّوْا السُّيُوفَ مِنَ الْغُمُودِ (اسْتَلُّوْهَا مِنَ الْأَعْمَادِ) ،
 وَاسْتَنْجَدَ هُوَ بِصَيْحَاتِ زَبِيرٍ كَالرُّعُودِ ^(١) .
 وَلَمَعَتِ السُّيُوفُ كَأَنَّهَا بُرُوقُ الْعَامِ الْخَصِيبِ ،
 وَأَشْرَفَ عَلَيْهِ رَامٍ مِنْ فَوْقِ كَثِيبٍ (تَلٍّ مِنَ الرَّمْلِ) ،

(١) من أبرع ما قرأناه في هذا الباب ، قول « البحرى » يصف « الفتح
 ابن خافان » وهو يصارع أسدا :
 « أدل بشغب ، ثم هالته صولة
 فأحجم ، لمّا لم يجد فيك مطمعا ،
 فلم يغنه : أن كرّ نحوك مقبلا ،
 حملت عليه السيف ، لا عزمك اثني ،
 رآك لها أمضى جنانا وأشعبا
 وأقدم لما لم يجد عنك مهربا
 ولم ينجه : أن حاد عنك منكسبا
 ولا يدك ارتدّت ، ولا حده نبا »

فَرَمَاهُ بِاللَّهْم مِنْ مَكَانٍ قَرِيبٍ ،
وَتَوَالَتْ عَلَيْهِ سِهَامُ الرَّاكِبِينَ ،
وَنَصَالَ الصَّيَّادِينَ ،

فَأَثْنَتَهُ (أَوْهَنَتَهُ وَأَضْعَفَتَهُ) بِالْجِرَاحِ ،
ثُمَّ هَجَمَ فَشَجَرُوهُ بِالرَّمَاكِحِ (طَعَنُوهُ بِهَا) .

— ٤ —

وَهَكَذَا عَادَ فِي أَيْدِي الْمَنَابِيَا مُوزَعًا مُنْتَهَبًا ،
وَأَخْرَجَ فِي النَّهْيَةِ ، صَرِيحًا مُتَرَبِّيًا .
وَلَوْ أَنْظَرَهُ الزَّمَانُ لَنَقَضَ مِرَّتَهُ (أَذْهَبَ شِدَّتَهُ) ،
وَلَا شَيْ قُوَّتَهُ .

حَتَّى يُسَلِّمَهُ الضَّعْفُ إِلَى الْمُنُونِ ،
وَلِلَّهِ فِي خَلْقِهِ شُئُونٌ .

الجزء الثاني

النَّصُّ الْكَامِلُ

الجزء الأول

فهرست

صحيفة

٢٥		خيانات الأعضاء
٢٧		خيانة الضمير
٣٢		غريزة الجسم
٣٢		ثبات الطبع
٣٣		الطبع واللون
٣٤		الطبع والهوى
٣٥		طبائع الأجيال
٣٧		الخير والشر
٣٧		الطبع والخلق
٤٢		الجنس والنوع
٤٤		مركب النقص
٤٦		الوعظ وسامعوه
٤٨		الكلب والثعبان
٥١		الطبع والعقل
٥٤		الطبع والعادة
٥٥		الجود والبخل

صحيفة

تحرير

القدرة الإلهية

٣		الوفاء والغدر
٥		الصدق والكذب
٨		سخرية ابن الرومي
٩		تصوير الأماني
١١		من عجائب القدرة
١٢		عصر السرعة واللاسلكي
١٣		الحواس الخمس
١٤		تذليل الوحوش
١٥		قصة الصخرة
٢٠		على لسان شاعر

الفصل الأول

الطبيعة الإنسانية

٢٣		لو غُرِّ بِلِ الناس
٢٤		طريق الإصلاح

صحيفة

الفصل الرابع

في عالم الأسود

- ٩٨ ... بين المعري وابن الرومي ..
 ١٠١ ... ابن المقفع والجُرْذَان ..
 ١٠٧ ... بين المعري والباحثي ..
 ١٠٨ ... ثمر النبع ..
 ١١٠ ... فأرتان ..
 ١١١ ... قصة الجنى ..
 ١١٣ ... الأسد والقط ..
 ١١٥ ... سطوة الأسد ..
 ١٢٣ ... أسد النجوم ..
 ١٢٤ ... الأسد الرهيص ..
 ١٢٥ ... الأسد والشجر ..
 ١٢٥ ... كيد الناس ..
 ١٣٤ ... في الدار الآخرة ..

الفصل الخامس

مصرع أسامة

- ١٣٧ ... القصة الأولى ..
 ١٤٣ ... القصة الثانية ..

صحيفة

- ٥٦ ... الطبع الفنى ..
 ٦٠ ... الطبع المكتسب ..
 ٦١ ... الدواء الشافى ..
 ٦١ ... الكنز العلائى ..
 ٦٢ ... في العالم الآخر ..

الفصل الثامن

الطبع الحيوانى

- ٦٤ ... الضعيف والقوى ..
 ٦٥ ... غريزة الظلم ..
 ٦٨ ... طبيعة الخوف ..
 ٦٩ ... براعة النحلة ..
 ٧٠ ... رزق الحيوان ..
 ٧٦ ... في طلب الرزق ..
 ٧٩ ... فنون الغرائز ..
 ٨٣ ... تصارييف القدر ..

الفصل الثالث

قصتان

- ٩١ ... أسامة والفأر ..
 ٩٦ ... النسر والعصفور ..





0040420361

DATE DUE

SEP 30 2010

GAYLORD

PRINTED IN U.S.A.

SEP 8 1952

09635602

PJ 7750

•A25 R6 1944 V1 C1

